2020

30.12.2019

اميل حبيبي
الآثار الكاملة

اميل حبيبي

سراج الغولة

النص / الوصية

اميل حبيبي

سراج الغولة

النص / الوهية

سراج الغولة

النصّ / الوصيّة

إميل حبيبي
سراج الغولة
النصّ / الوصيّة
(كُتب أوائل العام ١٩٩٦)

Emile Habiby
Sraaj el-Ghouleh
(The Oil-Lamp of the Ogress)

النّاشر: دار عربسك للنشر، حيفا
المحرِّرة: سهام داوود
تصميم: شريف واكد

حقوق الطبع وإعادة النشر، كاملاً أو جزئيًا، وبكافة وسائل الإعلام المطبوعة والإلكترونيّة، محفوظة لـ« دار عربسك للنشر »، صاحبة الحقوق الحصريّة والمسجّلة قانونيًا، ولا تُمنح دون اتفاق مُسبق وخطّي معها.

الموزع الرئيس: مكتبة كل شيء – حيفا

ساهم في إصدار هذه الأعمال مؤسسة عبد المحسن القطّان

2006 ©
Arabesque Publishing House
P.O. Box 6370, Haifa 31063

خطبة المؤلف

ها أنا أتحامل، أو أتحايل، على أوجاع الشيخوخة وكسلها وأقعد أمام مكتبي في بيتي القائم في مدينة الناصرة مصمِّمًا على البدء في كتابة هذه الذكريات عن علاقتي بالشعب «الآخر». وقع هذا الأمر الاستثنائي مساء يوم الخميس، الخامس والعشرين من الشهر الأول (يناير) في العام الجديد – ١٩٩٦. فأرجو اعتبار هذا التاريخ تاريخ اليوم الذي ابتدأت فيه الكتابة عن هذه الذكريات. أمّا يوم انتهائي منها فَعِلْمه عند الله سبحانه وتعالى. فإذا وجدتموه مكروهًا فردِّدوا قولنا الاعتذاري القديم أن: الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه.

ها أنا أُقلِّب طيَّات خيالي الشرقي باحثًا عن الجملة التي أستهل بها الكتابة عن هذه الذكريات. كانت خبرتي الخاصة علَّمتني أن هذه الجملة الأُولى هي مفتاح التداعيات في عملي الأدبي. فإما أن تكون «الرقم السريّ» الذي أفتح به خزانة كنوزي المتجمِّعة في عقلي الباطني، وإما أن تجيء مزيَّفة فأهرب عنها قبل أن تمسكني نفسي متلبِّسًا بهذه الجريمة. كنت أقضي أيّامًا، وشهورًا أحيانًا، في البحث عن هذه الجملة الاستهلالية حتى أَلتقيها فترضى بي وأرضى بها.

أنا لا أعرف شيئًا عن خبرة زملائي الآخرين، الإسرائيليين والغربيين، في كتابة أعمالهم الإبداعية وعن خصوصياتهم حين يأتيهم المخاض الإبداعي. وكنّا علمنا، في شبابنا المبكِّر، عن الأديب المصري في أوائل هذا القرن – مصطفى صادق الرافعي – أنه كان يضع رجليه في إناء مملوء بالماء الساخن حين تأتيه آلام المخاض الأدبي. وعلمت عن الشاعر الصوفي، ابن الفارض، أنه كان يتجرَّد من لباسه ويخرج إلى الناس عاريًا حتى تأتيه قصائده الصوفية عفو الخاطر. ولاحظتُ على بعض زملائي الإسرائيليين أنهم، في هذه البلوى، اثنان: مدمن على الخمرة أو مشفي، لتوِّه، منها. فمتى يبدعون؟! وقد طوَّفتُ، كثيرًا، في «ممالك الذهب»، فوجدتهم في هذه البلوى كما الناس!

واعتقادي، حتّى الآن، أن هذا الدور للجملة الاستهلالية هو من ميزات لغتنا العربية في الأدب وفي الشعر. وكنّا، في مدارسنا، نتبارى بما نحفظه من أبيات الشعر على النهج التالي: أن يتلو أحدنا بيتًا من الشعر فيكون على المتباري الآخر، الذي يواجهه، أن يتلو بيتًا آخر من الشعر يبدأ بحرف القافية الذي انتهى به البيت الأول. وهكذا دوالَيك حتى يعجز أحد المتبارين فيخرج من هذه اللُّعبة. وقد وجدتُ التعبير الأصدق عن هذه الميزة، للجملة الاستهلالية، في رواية «ألف

ليلة وليلة» الشهيرة حيث كانت نهاية الحكاية الواحدة تُهدي السبيل إلى الحكاية التي تليها. وهلمّجرًا حتى الليلة الواحدة بعد الألف. ولا أرى في هذه الميزة أي عيب. فإنه لا تفكير منقطع عن اللغة وأساليبها.

لقد تبنّى أسلافنا رواية «ألف ليلة وليلة»، الفارسية الأصل، وأضافوا إليها من جيل إلى جيل حتى أصبح مسرح أحداثها مدن الازدهار الثقافي العربي والإسلامي – بغداد والمَوصل والقاهرة. فأصبحت من تراثنا جنبًا إلى جنب موسوعة «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني والموسوعة الأندلسية – «العقد الفريد» – لشهاب الدين بن عبد ربه، وكتاب «البخلاء» للجاحظ، وغير ذلك من الكلاسيكيات العربية التي طمأنتني على أن جنس القصة الواقعية، في الأدب العربي، قديم العهد في تراثنا العريق وترجماته إلى اللغات الأُوروبية ساعدت أهلها الأُوروبيين على الارتقاء إلى عصور الأدب الواقعي.

وأما إذا بخلتم علينا بهذا الدور التاريخي فلا مهرب أمامكم من الاعتراف بأن هذا الأدب هو جزء من «الخيال الشرقي» الذي سبق الغرب إلى «بساط الريح» و«طاقية الإخفاء» وكمبيوتر «مصباح علاء الدين»!

هنا يعود التيار الكهربائي إلى بيتي بعد انقطاعه حوالي

الساعة. فأكتب على مهلي وأتساءَل ما بيني وبين نفسي: ما الذي قادني إلى هذه التداعيات التي أوصلتني إلى «مصباح علاء الدين»؟

الآن، حين كنت أبحث عن هذه الجملة الاستهلالية، إذا بها تهبط عليّ، من خلال الظلام الدامس، هبوط الوحي على نبي: انطفأ نور الكهرباء في بيتي وفي كل البيوت والشوارع والأزقّة في حارات الناصرة. قلت: جاءَت وربّ ضارّة نافعة. وإذا عجزت عن أن أفتح خزانة كنوزي فإن هذا الظلام قمين بأن يستر عجزي.

كنّا تعودنا على هذا الأمر في السنوات الأخيرة: في الشتاء ينقطع التيّار الكهربائي عنّا، بين ليلة وأُخرى. وفي الصيف ينقطع ضخّ الماء إلى خزّانات بيوتنا. أمّا «الناصرة العليا»، المدينة اليهودية التي بُنيت على أراضي الناصرة المصادرة، فلا تعطش ولا تُصاب بالعمى لا في صيف ولا في شتاء. وها هي، الآن، تَشعّ بالأضواء الكهربائية أشبه بسفينة فضاء كبيرة هبطت على كوكب مجهول يكتنفه الظلام. أمّا نحن، في الناصرة «التحتا»، فإننا أهل هذا الكوكب وقد اضطُررنا إلى الاختباء في ديماس خلو من أية فتحة نور منتظرين أن يخرج ركّاب هذه السفينة الغريبة فنتعرّف عليهم: هل هم من أبناء حواء وآدم، مثلنا مثلهم، يستنشقون هواءنا ولا يخنقهم،

أم ماذا؟

والحقيقة أننا لم نختبىء. ولم يتركونا نختبىء. بل لاحقونا في ديناميسنا. فوجدنا أبناء لحواء وآدم من بينهم كما وجدنا، من بينهم، ميكيافيليين عبيداً لسيد يسمُّونه باسم «أمن الدولة». واعتماداً على خيالنا الشرقي نحلم، الآن، بأن الأُمور سائرة نحو إعلاء شأن الآدمية فيهم وفينا. وكنتُ شبَّهت وضعنا، الآن، بوضع جماعة وجدت نفسها في ساحة من الأرض تفصل ما بين جيشين متحاربين يتبادلان القصف المدفعي. واختبأت هذه الجماعة في حفرة عميقة خلفتها قذيفة مدفع. وإذا بالهدوء يعمّ الجانبين ويعمّ الساحة بينهما. وإذا بالمنادي ينادي أن القصف المدفعي قد توقَّف. فيخرج أفراد من هذه الجماعة خارج الحفرة يقدمون رجلاً ويؤخِّرون أُخرى وهم بين مصدِّق ومكذِّب. فهل حقًّا؟!

كنت انتظرت عودة التيّار الكهربائي، طويلاً. ولكنه لم يَعُد. فأضأت السراج الكهربائي الاحتياطي ووضعته فوق مكتبي وشرعت في هذه الكتابة معنونًا هذه المقدمة بعنوان «سراج الغولة». فهل يصلح؟!

كان أسلافنا يسمُّون مقدمات كتبهم باسم «خطبة المؤلف». وقد تكون هذه التسمية راجعة إلى أنهم كانوا يُملُون مؤلفاتهم على خطّاطين إملاء. نحن، حتى الآن مثلاً،

نسمّي فعل التدخين باسم « الشُرب » : فلان يشرب السيجارة . فمن أين جاءت هذه التسمية؟ لقد وجدت، في بطون الكتب، أن أسلافنا كانوا يضعون أوراق النبتات المخدِّرة في الماء المغلي فيشربونه شُربًا بالفعل، إما مع الشاي الصيني أو يشربونه حِلاًّ . فاخترت أن أُسمّي هذه المقدِّمة باسم « الخطبة » . فأنا، على كل حال، أقرأُ ما أكتبه بصوت مرتفع عسى أن يعلو صوتي على صوت جهاز التلفزيون الذي يديره أحفادي الأطفال على مسلسل « توم وجيري » . فإذا علا صوتي رفعوا صوته في مباراة بيني وبينهم أكون فيها الخاسر دائمًا .

ولكن ما شأن « سراج الغولة » ؟

كانت جدّاتنا يحكين لنا حكايات شعبية متوارثة عن « سراج الغولة » . فالغولة تقعد، في الليل، على قارعة الطريق وتشعل سراجها . فيأتي المسافر المتعب على قدميه نحو هذا الضوء معتقدًا أنه « نار القِرى » ، أي الضيافة . وكان حاتم الطائيّ، الذي يُضرَب به المثل على كرم الضيافة، يشعل النار أمام مضارب قبيلته حتى يهتدي المسافر إليه . فينزل أهلاً ويطأ سهلاً . ومنه جاءت تحيَّتنا التقليدية للضيف أنْ « أهلاً وسهلاً » . أمّا الغولة فتضيء سراجها ليأتيها المسافر التائه لقمة سائغة وهو لا يدري .

فهل هذا هو حالنا، الآن؟

يُرضي غرورنا القومي، الذي لم يبقَ لنا سواه، قيام اليهود الأشكناز في إسرائيل بتبنّي هذه التحية العربية العريقة حتى ولو جاءَت على ألسنتهم مجتزأة. فيقولون «أهلاً». وأمّا «سهلاً» فقد يعرفها بعضهم ولكنه قد يعتقد أنه لم يحن أوانها. أمّا اليهود الشرقيون فلغتهم لغتنا مع أن بعضهم يحاول أن يخفي هذا الأمر خوفًا من أن يتدنّى حالهم إلى مستوى حالنا مع أن أحوال البعض منهم أسوأ من أحوالنا. ولي صديق حميم منهم صيّاد سمك وصاحب قارب صيد تعوَّدنا، منذ عدَّة سنوات، على الخروج إلى البحر في قاربه وبصحبته لصيد السمك في الليل – من غياب الشمس حتى طلوعها. وأعتقد أنني، لولا هواية صيد السمك، لما قدرت على العيش حتى هذه الساعة. ولاحظت أنني لست وحيدًا في هذه الهواية بين أبناء شعبي الباقين في هذه الدولة. فالمئات، وربما الأُلوف، منهم التجأوا إلى هذه الهواية جيلاً بعد جيل، للسبب نفسه ولا ريب. وهذا هو شأن اليهود الشرقيين. فكلُّنا، في هذا الهمّ، عرب أو «يهود أولاد عرب» مثلما نسمِّيهم. ونحن، في صيد السمك، أعزّ الأصدقاء ما دمنا متَّفقين على الهروب إلى البحر من خلافات السياسة. لدينا اتفاق غير مكتوب، بيننا وبينهم، أن نتحدَّث عن كل شيء باستثناء السياسة.

وصاحب سفينة الصيد، تلك، اسمه «فيرمي». وفي رحلة

الصيد الأُولى، على مركبه، تنبَّهت إلى أمره. فسألته: «فيرمي»، أين ولدتَ؟ أجاب، متردِّدًا: في العراق. قلت: فاسمك الحقيقي هو «فهمي» إذن. أجاب، مندهشًا: حقًّا. اسمي الحقيقي هو فهمي. ولم أسأله لماذا غيّر اسمه في إسرائيل. فالعديد من العرب، في إسرائيل، مضطر أيضًا إلى تغيير اسمه حتى يشتغل نادلاً في مطعم أو عاملاً في محطة بنزين. وكنت تنبَّهت إلى ذلك في روايتي عن «المتشائل» التي صدرت في العام ١٩٧٤. فقد جاء، في الفصل الحادي عشر من الكتاب الثاني:

«والنادل شلومو، في أفخم فنادق تل أبيب، أَلَيْس هو سليمان بن منيرة، ابن حارتنا؟ ودودي، أَليسَ هو محمود؟ وموشي، أليس هو موسى بن عبد المسيح»؟! فلمّا وقع احتلال العام ١٩٦٧ وجدنا إخوتنا في المناطق المحتلة يسرعون إلى الاستفادة من تجربتنا هذه خصوصًا وأننا تباهينا أمامهم بنجاح هذه التجربة. فكيف نلومهم ونحن أدرى الناس بأن «الجوع كافر»؟!

ولنعد إلى تحيتنا التقليدية، «أهلاً». فإن هذه التحيَّة العربية العريقة أخذت، مؤخرًا، تقف على ألسنة اليهود الغربيين على قدم المساواة مع التحية الأمريكية الدارجة – «هاي»! وهذا هو شأن العديد من الكلمات العربية الجميلة. ومنها كلمة

« أحلى ». بل قامت إحدى الشركات الإسرائيلية، مؤخّرًا، بتعليب طبق الحُمص التقليدي وسمّته باسم « حمص أحلى ». وأعلنوا عنه، في الإذاعة والتلفزيون، صارخين: « أحلى حمص »!

وتوجد مطاعم في إسرائيل اختارت لها اسم « صبابة ». وهي من « التصبُّب »، أي التغزّل بجمال الحبيبة. وكنت لاحظتُ، في زمن ما قبل المسيرة السلمية، أن التأثير المتبادل بين اللُّغتين اقتصر على السلبيات المتبادلة: أخذوا عنّا قاموسنا الغني بالشتائم وأخذنا عنهم قاموسهم الغنيّ بالفظاظة. وكنت توقّعت أن يتحوّل هذا التأثير المتبادل، في طريقنا إلى زمن السلم، إلى تبادل الإيجابيات. وهذا ما هو آخذ في الحدوث الآن ونحن في طريقنا إلى هذا السلام المرجوّ. وما « أهلاً » و« أحلى » و« صبابة » وأخواتها سوى السنونو الأُولى التي تبشّر بمقدم السلام. فهل حقًّا؟!

سوى أوساط يمينية في إسرائيل لا يربطها بهذه البلاد سوى الحسرة على ثقافة « الدياسپورا » في الغرب. ومن هذه الأوساط أحد حراس اللغة العبرية الذي يذيع برنامجًا مسائيًّا قبل نشرة الأخبار المسائية في الإذاعة الإسرائيلية. وأنا أهتم بالاستماع إلى توضيحاته اللُّغوية فيزداد اقتناعي بأن اللغتين، العربية والعبرية، توأمان لأُم واحدة. وقبل أُسبوعين، من هذا الكلام،

وجدتُه يفسّر التعبير العبري – الذي معناه بالعربية « حصة الأسد » – بالحكاية التالية عن الحمار والثعلب اللذين حملا إلى الأسد، ملك الغابة، فريستهما. فاقترح الحمار توزيعها على ثلاثتهم بالتساوي. فغضب الأسد عليه. وطلب من الثعلب أن يقوم بالتوزيع. فاقترح الثعلب، الماكر، إعطاء الأسد الجزء الأكبر من الفريسة. فرضي الأسد بهذه القسمة. ومن هذه الحكاية جاء القول، بالعربية وبالعبرية، « حصة الأسد ». إلاّ أن حارس اللغة العبرية، ذلك، أعاد الحكاية إلى « حكمة الإغريقيين القدامى ». أمّا الحقيقة، المعروفة لدينا تاريخيًا، فهي أن هذه الحكاية – « حصة الأسد » – تعود إلى إحدى حكايات كتاب « كليلة ودمنة » الذي ترجمه من الهندية إلى العربية الكاتب عبد الله بن المقفع في صدر الدولة العباسية.

وأذكر، لفائدة هؤلاء الزملاء اليهود الذين يصرُّون على التنكر لأُم لغتهم الحقيقية، أنه لدينا – في تراثنا – العديد من الأضواء التي بدّدت وتبدِّد الظلام الدّامس المحيط بنا. ومنها: الفراشات المضيئة في غابة يكتنفها الظلام. ونسمِّيها باسم « سراج الليل » فحسب. ولا يُرى نورها إلاّ في الظلام الدامس. ومن هذه الفراشات استلهم الشاعر العربي الماجن، عمر بن أبي ربيعة، قوله الذي جرى مجرى المثل: « وهل يخفى القمر »؟! ومنها قال أجدادنا: « الصديق وقت الضيق ». أي

يعرف الصديق الصدوق حين تحوطك المصائب من كل جانب ويتخلّى عنك «أصدقاء الهَنا».

وهناك، في أساطيرنا المتوارثة، «مصباح علاء الدين» إذا فرَكته براحة يدك انطلق جنّي من داخله يتولّى تحقيق أُمنياتك وهو يهتف: «شُبِّيك لُبِّيك. عبدك بين يديك». وكثيراً ما وجدنا أنفسنا في طوق محكم حولنا حتى لا أمل لنا في كَسره سوى ذلك الجنّي في «مصباح علاء الدين». ولكن، لا مصباح ولا جنّي.

فما حاجتي إلى «سراج الغولة» عنوانًا افتتاحيًا ولديّ مصابيح أُخرى من مثل «سراج الليل» و«مصباح علاء الدين» وغيرهما من المصابيح العجيبة؟ لا جواب عندي، الآن، سوى الجواب العفوي أنّ هذا ما جاءَت به قريحتي وقد «سبق السيف العذل» أو «وقع الحسم» مثلما يقول زملائي العبريون حين يبرِّرون تهرُّبهم من القيام بدورهم الاجتماعي – السياسي. وأمّا زملائي العرب فلا يهمُّهم هذا الحسم ما داموا يتشبَّثون بما يسمُّونه باسم «الحقّ المطلق» ولا يجدون لهم من مهمّة سوى البكاء على الأطلال مع الاحتفاظ بضمائرهم نقيّة نقاوة أرض مقبرة محاطة بأشجار النخيل من كل جانب ولا يدخلها المشيِّعون إلاّ وهم يخفِّفون الوطء فوق ترابها. وأجدني، بين أُولئك وهؤلاء، «لا مع عمّي بخير ولا مع ستّي بخير». فأُعزّي

نفسي بأنني «أكثرية الواحد».

أما وقد وصلنا إلى هذا الموضوع، من هذه الذكريات، فإنني أتذكّر روايتي عن «سعيد أبي النّحس المتشائل» الذي لم يبقَ له من موقع في وطنه سوى رأس خازوق. وقد كرَّمني شعبا بلادي الإثنان باستقبال مدهش لهذه الرواية ممّا جعلني أتفاءَل خيرًا – بشعبي العربي الفلسطيني، على اعترافه بالأمر الواقع، وبشعب إسرائيل على اعترافه الضمني بالذنب.

وكنت، بعد صدور التّرجمة العبرية لرواية «المتشائل»، أُدعى إلى نوادي الكيبوتسات حيث كانوا يسألونني عن مصير «المتشائل». وجوبهت، في كل لقاء من هذا النوع، بسؤال واحد وحيد: لو انتصرتم علينا، أنتم العرب، لما أبقيتم لنا، في هذه الدِّيار أيّ موقع ولا حتى فوق رأس خازوق. فكنت أُجيبهم، أنا أيضًا، جوابًا واحدًا وحيدًا ومتكرِّرًا: ولكن الواقع هو أنكم أنتم مَن انتصر علينا. هذه هي المشكلة الفعلية التي تجابهكم ولا تستطيعون الإفلات منها بفرضيات جاء الواقع مناقضًا لها وانتهى الأمر – وهي أنكم أنتم الذي لم يُبقِ لنا في بلادنا موقعًا سوى رأس خازوق. وحتى هذا الموقع تنكرونه علينا أحيانًا.

وقد يكون هذا هو الدافع الذي دفعنا إلى التشبُّث بموقعنا هذا – فوق رأس خازوق – ما دام هذا الخازوق قائمًا فوق ثرى

بلادنا. فقد سمعنا بآذاننا ورأينا بأُمهات عيوننا أن البديل أدهى وأمرّ.

كان مؤسِّس الدولة العبرية، داڤيد بن غوريون، قد أعلن في أول كنيست شاركتُ في عضويتها – الكنيست الثانية في العام ١٩٥٢ – عن دهشته من استمرار اللاجئين الفلسطينيين في اجتياز الحدود محاولين العودة إلى مدنهم وقراهم وبيوتهم وحقولهم، «مع أننا – قال – نطلق الرصاص عليهم ونقتلهم». فوجدتني أُقاطعه باللغة العبرية لأول مرّة في حياتي في الكنيست. أجبته، مندهشًا أنا أيضًا: ألا تعرف معنى حب الوطن؟!

ومؤخرًا اكتشفت فضيلة لهذا الخازوق لم أكن أعرفها من قبل. وجاء اكتشافي المدهش هذا في مجرى افتتاحية العدد الأول من مجلتنا الأدبية الفلسطينية الشهرية التي شرعنا في إصدارها ابتداءً من شهر آب (أغسطس) من العام الماضي، ١٩٩٥، بهيئة تحرير مشتركة من الفلسطينيين في داخل إسرائيل ومن زملائهم الفلسطينيين من مناطق السُّلطة الوطنية الفلسطينية. فجاء في تلك الافتتاحية، عن ذلك الخازوق، ما يلي:

«لعلكم تذكرون أنني لم أجد من موئل لسعيد أبي النحس المتشائل، في وطنه، سوى رأس خازوق. ولم يَدُرْ في خَلَدي،

في ذلك الزمن السحيق، أن الخازوق هو مكان عالٍ يصلح منه الإشراف على آفاق قرن جديد وألف جديدة من السنين. بل لم يَدُر في خَلَدي أن لا يجد شعبي مكانًا في وطنه، بعد هذا العمر الطويل، سوى رأس خازوق.

«ولكن، حتى ولو كانت هذه هي صورة الواقع الحقيقية – وفي محاولة الإشفاء على هذا الواقع والشفاء منه أصدرنا هذه المجلة – فإننا نفضّل رأس خازوق فوق تراب الوطن على رحاب الغربة كلها. فقد وجدناها، كلها، حرابًا وفِراشها أشبه بفِراش فقير هندي: رؤوس مسامير أو خوازيق صغيرة وكبيرة على قدر المقام! ولله، ولنا ولأولادنا، دَرُّ أحمد شوقي على قصيدته عن الحمامتين اللتين حلّتا على فنن –

في خامل من الرياض لا ندٍ ولا حسن
مرّ على أيكهما ريح سرى من اليمن

فحاول الريح أن يغريهما بالعودة معه إلى اليمن، بمائه وبخضرته. حينئذ:

قالت لي إحداهما والطير منهن الفطن:

يا ريح أنت ابن السبيل ما عرفت ما السكن.
هب جنّة الخلد اليمن لا شيء يعدل الوطن».

أعرف أننا سائرون الآن – فلسطينيين وإسرائيليين – في مسيرة سلمية بدأ شعبانا يريان، عبرها، الضوء في نهاية

ديناميس العداء المتبادل وانهار الدم أجيالاً متعاقبة. والعديد منّا، نحن الكتّاب العرب واليهود، نؤمن بأن هذا الضوء لا يصدر عن «سراج الغولة» هذه المرَّة. ولا حتى عن فراشات مضيئة في ليل يخبو نورها بطلوع فجره. ولم نعد في حاجة إلى عجيبة من عجائب علاء الدين ومصباحه العجيب. فشعبي العربي الفلسطيني علَّمته تجربته المأساوية أنْ لا جدوى من انتظار الفرج من خارجه ومن خارج قدراته العينيّة. وسيكون من العجيب، حقًا، ألا يكون شعب إسرائيل قد وصل إلى هذه الحقيقة عبر تجربة لا تقلّ قساوة عن تجربتنا.

كلانا جرَّب وفشل: شعبي العربي الفلسطيني أدرك أن الوجود الإسرائيلي في فلسطين ليس ظاهرة عابرة، إن خيراً وإن شرًا. ومن المستبعد أن يكون شعب إسرائيل، بعد تجربته القاسية هو أيضًا، أقلّ وعيًا من الشعب العربي الفلسطيني في هذا المجال المصيري. فهو، أيضًا، جرَّب وفشل ومن المفروض فيه أن يكون أدرك، هو أيضًا، أن الوجود العربي الفلسطيني في وطنه فلسطين ليس ظاهرة عابرة. فالشعب العربي الفلسطيني أثبت، حتى داخل إسرائيل نفسها، أنه غير مؤهَّل للزوال في وطنه الذي لا وطن له سواه.

فما هي، إذن، الأسباب التي جعلت شعارات اليمين الإسرائيلي، المعادي للمصالحة التاريخية بين شعبينا، منتشرة

لدى أوساط واسعة من المجتمع اليهودي في إسرائيل؟

أعرف عن أسباب وجيهة عديدة. ولكنني أكتفي، لفائدة ذكرياتي هذه، بسبب وجيه واحد. وهو تردُّد العديد من السياسيين، من قادة المسيرة السلمية الحالية، وتردُّد العديد من زملائي اليهود في شرب الكأس المُرّة – هذه الكأس التي لم نتردَّد، نحن زملاءَهم العرب، في شرب ما هو أشد مرارة منها. لم نتردَّد في الاعتراف بالوقائع الجديدة في بلادنا على الرَّغم من المصائب التي سبَّبتها لنا هذه الوقائع الجديدة. أمّا بعض زملائنا الإسرائيليين فيتردَّد في الإفصاح أمام شعبه عن عظم الثمن الذي دفعه شعبنا العربي الفلسطيني بموافقته على المصالحة التاريخية بشروطها الراهنة. ويتهرَّب العديد من السياسيين الإسرائيليين من الاعتراف، أمام شعبهم، بفشل آلة الحرب الإسرائيلية في القضاء على الهُوية العربية الفلسطينية وفي محو الوجود العربي الفلسطيني في فلسطين.

كان من الصعب على شعبنا العربي الفلسطيني، شأنه شأن كل شعب عريق آخر، الموافقة في العام ١٩٤٧ – ١٩٤٨ على الحل الذي طرحته الجمعية العمومية للأُمم المتحدة بتقسيم وطنه. وها هو يوافق، الآن، على الحدود التي أقرها مجلس الأمن الدولي بقراره رقم ٢٤٢ الأشدّ إجحافًا بحقوقه القومية من حدود قرار التقسيم. إن «الكواشين الإلهية» كلّها لا تبرِّر

طرد إنسان عربي واحد من وطنه. وتكاد تضحية الشعب العربي الفلسطيني، في قبوله المصالحة التاريخية، توازي تضحية تلك الأُم الأصيلة – في المحكمة التوراتية الشهيرة أمام الملك سليمان – حين وافقت على التنازل عن وليدها، فلذة كبدها، للأُم الدَّعية حتى تنقذه من الموت بتقسيم جسمه بين المرأتين! فما الداعي إلى إخفاء هذه الحقائق والتهرُّب من مواجهة وقاحة اليمين وغيبيته؟!

وكثيرًا ما ذكّرني هذا التهرُّب والتردُّد بالحكاية التي أوردها الكاتب الروسي الكلاسيكي، ليون تولستوي، عن الوالدة المسافرة مع أولادها الثلاثة فوق زحافة ثلجية يجرُّها حصان. فهاجمها قطيع من الذئاب الجائعة. فأصابها الخوف بالهستيريا. فألقَت بأحد أولادها إلى القطيع عَلَّ الذئاب تكتفي به وتخلّ عنها. فازدادت الذئاب نهمًا وافتراسًا. فألقَت بولدها الثاني إلى الذئاب. فالثالث. وفي النهاية التهمتها الذئاب والتهمت الحصان «فوق البيعة». فإن هذه الذئاب نفسها، وبسبب التراجع نفسه أمامها، التهمت رئيس وزراء إسرائيل السابق – إسحق رابين – في مساء الرابع من نوفمبر العام الماضي، ١٩٩٥.

وهل هناك وقاحة أشدّ من وقاحة رئيس الـ«ليكود»، بنيامين نتنياهو، حين يطلب من الرئيس الفلسطيني – ياسر عرفات

– أن «يثبت» حسن نواياه وأنه قد تخلّى عن «برنامج إزالة دولة إسرائيل على مراحل»؟ فإن هذا الزعيم اليميني يتباهى بأن برنامجه نفسه هو الاستيلاء على كل فلسطين وربما أجزاء من الأردن أيضًا على مراحل تمشّيًا مع الشعار الحيروتي القديم عن أن «للأردن ضفتين. هذه لنا والأُخرى أيضًا»!

إنّنا لا ننكر وجود أوساط فلسطينية متطرّفة ترفض، هي أيضًا، السير في درب المصالحة التاريخية. ولكننا لا نستطيع، في هذا المجال، تجاهل أمرين: لن نتجاهل الدعم المتبادل، في النتيجة، بين اليمين الإسرائيلي واليمين الفلسطيني. هذا أولاً. وأمّا ثانيًا فهو أن الانتخابات الرياسية والتشريعية الفلسطينية الأخيرة، التي جرت في العشرين من الشهر الأول من هذا العام، أثبتت أن الأكثرية الساحقة جدًا من الشعب الفلسطيني تؤيّد المسيرة السلمية والمصالحة التاريخية مع إسرائيل. فهل يحق لنا انتظار مثل هذه الأكثرية، بل أية أكثرية، لمؤيدي المسيرة السلمية والمصالحة التاريخية في الانتخابات الإسرائيلية القادمة؟ يقينًا أنه يحق لنا أن ننتظر وأن نعمل، جاهدين، لتحقيق هذه الأُمنية. وقد يأتينا الجواب على هذه الأُمنية قبل أن ترى هذه الذكريات نور المطابع.

وقد يكون هذا التردُّد – في الاعتراف بالفشل في القضاء على الوجود الفلسطيني وبالثمن الباهظ الذي دفعه الشعب

العربي الفلسطيني بموافقته على المسيرة السلمية بشروطها المجحفة جداً – هو مبعث الدعوة، التي يطلقها السياسيون وبعض الكتّاب في إسرائيل، داعيننا نحن الكتّاب الفلسطينيين إلى التخلي عن كتاباتنا السابقة وإلى التوجُّه نحو مستقبل السلام. إنني واحد من عديدين، من عرب ومن يهود، يعتقدون أن العكس هو ما يخدم المسيرة السلمية وقضية المصالحة بين شعبينا. إن مجرد استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية ٢٩ عامًا، أي منذ حرب حزيران العام ١٩٦٧، أدى إلى قطيعة مأساوية بين الأجيال الإسرائيلية الشابة وبين تاريخ هذه البلاد الحديث – قطيعة نمّاها التثقيف الإسرائيلي المبرمج على إخفاء هذا التاريخ أو على تزويره. وعلينا ألا نستهين بالدور، في هذا المجال، الذي قام به حكم اليمين الإسرائيلي الذي استمرّ ستة عشر عامًا. إننا نحتاج الآن، وأكثر من أي وقت مضى، إلى ترجمة كتاباتنا إلى العبرية عن مآسي الشعب العربي الفلسطيني. كما أننا في أمسّ الحاجة إلى تعميم أعمال العديد من زملائنا اليهود المعبِّرة عن الصدق الأخلاقي وتأنيب الضمير، والمعبِّرة عن ضمير شعب تميَّز تاريخه بالوقوع ضحية الاضطهاد العنصري فكيف يقوم باضطهاد شعب آخر؟!

إننا لا نطلب الاعتذار. ولكن من حقِّنا أن نطلب عدم إخفاء

الماضي أو تزويره. لقد كان شعبنا العربي الفلسطيني، ولا يزال، الضحية الأساس لهذا النزاع الدامي. فلا يمكن بناء أي سلام على الاستمرار في قلب هذه الحقيقة التاريخية على رأسها بتصوير هذه الضحية على أنها الظالم والباغي والمعتدي.

ولكن، ماذا نفعل بالذكريات عن العلاقات في الماضي القريب والبعيد؟ هل من الممكن أن نكتب عنها تحت الشعار الاعتذاري: «عفا الله عمّا مضى» و«اللي فات مات» مثلما نطقها هنري كيسنجر حين كان وزيرًا لخارجية الولايات المتحدة؟!

ليس هناك ما نستحي به من هذه الذكريات عن العلاقة مع «الشعب الآخر». فقد أمضينا حياة جيلنا كلها في السعي للتعاون ما بين شعبينا على تحقيق السلام العادل وراء شعار: «شعبان – دولتان».

وقيِّض لي شخصيًا أن يختارني رفاقي، في قيادة «عصبة التحرر الوطني»، التي كانت تنظيمنا في زمن الانتداب البريطاني على فلسطين، لإعداد تقرير هذه القيادة ولإلقائه في اجتماع طارىء للجنة التنظيم المركزية عقدناه في مدينة الناصرة في نهاية العام ١٩٤٧ – التقرير الذي دعونا فيه شعبنا العربي الفلسطيني إلى الموافقة على قرار الجمعية العمومية

للأُمم المتحدة الذي أقرته في ٢٩/١١/١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين ذواتيّ سيادة، عربية فلسطينية ويهودية إسرائيلية، على الرغم ممّا فيه من إجحاف شديد بحق الشعب العربي الفلسطيني القومي والإنساني في وطنه فلسطين. فقد أدركنا، منذ ذلك الوقت، أن تنفيذ قرار الأُمم المتحدة هذا هو البديل الوحيد – في الأوضاع التي كانت قائمة – عن الكارثة التي حلّت بالشعب العربي الفلسطيني في العام ١٩٤٨–٤٧.

حتى ولو كانت، في هذه الذكريات، أشياء نستحي منها، فهل يحق لنا تزوير التاريخ أو تبييضه كما يُقال؟ فالتاريخ أصبح حقيقة موضوعية. ويزداد التاريخ وضوحًا بمدى الابتعاد عنه. والتاريخ، مثله مثل اللوحة الفنّية، لا يتألّف من لون واحد. فيه الأبيض وفيه الأسود وفيه الرمادي. وهذه هي لوحة شعب فلسطين العربي وشعب إسرائيل اليهودي. غير أن هذه الحقيقة لا تجيب على السؤال التاريخي: من هو الظالم ومن هو ضحية الظلم؟

وقد اخترت أن أُقدم، بعد هذه المقدمة الطويلة التي ذكّرتني بمقدمة ابن خلدون لتأريخه الشهير، حكاية ذكرياتي الشخصية عن علاقاتي مع «الشعب الآخر»، كنت أنشأتها باللغة العبرية لأول مرة ونُشرت في مجلة «پوليتيكا» في العام

١٩٨٨ . وهي الدورية التي كان يصدرها تنظيم «راتس» اليساري المعتدل .

وسوف أُتبعها بصور عن هذه العلاقات كنت ضمنتها بعض رواياتي التي أصدرتها في إسرائيل . وسوف أتحدث، في الختام، عن هذه العلاقات في الوقت الحاضر ومنذ اتفاق أُوسلو على الاعتراف المتبادل .

ويبقى رائدي، في نهاية الأمر، تعزيز التفاهم المتبادل والاحترام المتبادل ما بيننا على اعتبار أن هذه هي إرادة التاريخ – شئنا ذلك أم أبينا . ولا تستطيع الضحيَّة، في نهاية الأمر أيضًا، الخروج من جلدها . ولا شعب يقبل بأن يتخلّى عن ماضيه مهما يكن هذا الماضي . والشعوب الحيّة تتعلم من ماضيها لتضمن مستقبلها . وهذا ما أرجوه لشعبَي هذه البلاد – شعب فلسطين العربي وشعب إسرائيل .

أخي الذي لم تلده أُمي (*)

قيِّض لوالدي، شكري نخلة حبيبي، أن يعبر التِّسعين من سني حياته قبل أن تعبر عائلته، التي بوركت بالأولاد وبالأحفاد، إلى مرحلة التيه من حياتها بعيداً عن حيفا في العام ١٩٤٨. أما الوالد فقد أقعدته شيخوخته المزمنة عن الرحيل إلى ما هو أبعد من بلدته الأصلية – مسقط رأسه شفاعمرو القريبة من حيفا ٢٥ كيلومتراً. كانت شفاعمرو محطته الأُولى فأصبحت محطته الأخيرة: أول من استقبله وآخر من ودّعه.

حين أعود إلى ذكريات تلك الأيام، وإلى ذكريات «الولدنة» ما قبل تلك الأيام، يدهمني شعور غريب: أراني كما لو أنني أُحاول أن أُخفي عن الناس «ابتسامة باطنية» فيُؤلمني هذا الأمر. فأُشبِّهه، في عيني نفسي، بجرح «القُرحة». وكنت، حين يأتيني، أُعلِّل النّفس بزوال الأسباب لهذه العلّة. وسوف أذكر أسبابها فيما سيأتيني، بعد، من صناعة الكلام. أمّا الآن فأبدأ بسبب آخر، بسبب جديد، جاءني الآن عفو الخاطر.

لقد كنتُ تهيَّبت، فيما مضى، من البوح بذكرياتي الشخصية عن أيام «الولدنة». وذلك لعلمي بأن «الشخصية المعروفة» تولد، في عينَي جمهورها، «بشراً سويًّا». فكيف لا أتهيّب الآن من هذا الأمر وأنا أُقدِم عليه لأول مرّة؟ وهل

عَرَضًا جاءَت باللغة العبرية هذه المرَّة الأُولى؟

عندنا يقولون: «ما أكذب من شيخ ماتت أجياله إلا شاب تغرّب»! شخنا ولله الحمد ومات الكثيرون من أبناء جيلي. ولكن كثيرين من أبناء جيلي، أيضًا، باقون، باقون ينتظرونني. ولذلك لم يبقَ من الأسباب سوى الغربة – غربة اللغة. كانت والدتي تعنِّف واحدًا من إخوتي على تأنُّقه في كلامه بدسّ ألفاظ إنجليزية في كلامه، أحيانًا، وتقول له متهكِّمة: كانت ستَّك، رحمها الله، خريجة «كسفورد»!

كيف كان والدي سيعلِّق، لو استطاع أن يعلِّق، على هذا «التسيُّب» الذي يرتكبه الآن ابنه الوحيد الباقي مقيمًا في أرض الوطن من دون بقيّة أبنائه؟ تعود بي الذاكرة، الآن، إلى صراخه على الوالدة «وردة»، زوجه، وكانت تصغره عشرين عامًا. ففي إحدى الأماسي جاء إلى بيتنا خطيب أُختي وصحبها، وحيدين، في زيارة عائلية إلى بيت قريب لنا مجاور لبيتنا في الطرف الآخر من شارع عباس. كان عليهما أن ينزلا في درجات ضيِّقة تظلِّلها من الجانبين أشجار السرِّيس والعلِّيق البريّة. كان والدي في هذه الأثناء جالسًا على مقعده المعهود يهوّم برأسه بين النائم واليقظ كعادته. فما إن التقيا حتى أخذ يزمجر ويصرخ في وجه الوالدة: «أخذها إلى الخلّة يا وردة». و«الخلة» هي الدّغلة الموحشة.

كان والداي متديِّنين. ووالدي كان في زمانه معلم المدرسة الوحيد في شفاعمرو. وزمانه كان أواخر الحكم العثماني. وهو «شكري» الذي يتردَّد حتى يومنا هذا على ألسِنَة الشفاعمريين حين يردّدون – في أفراحهم – أغاني «العاصمة»: «يا شكري هات الدفتر»!

وفي العام ١٩٢٠ انتقلت العائلة للسكن في حيفا سعيًا وراء الرزق وفي طلب العلم للأولاد. فكنت الولد الأول الذي وُلد للعائلة في حيفا وأوّل من وُلد لها في زمن الانتداب البريطاني على فلسطين. ولا أذكر والدي إلاّ عاطلاً عن العمل، شيخًا هرمًا مقيمًا في البيت آخذًا بيدي في خطواتي الأُولى في المدرسة الابتدائية. وجدّتي، لأبي، انتقلت مع العائلة إلى حيفا. واسمها مريم. وجدّتي الثانية، لأُمي، كان اسمها أيضًا مريم. ولكنّها ظلّت مقيمة في شفاعمرو، في «البيت القديم». أمّا مريم الحيفاوية فكانت تنومنا بأساطير الجنّ والمردة. وكانت تنام قبل أن ننام. وأذكر، عن تلك الأيام، أن والدي كان يجمع أطفال العائلة حوله ويقرأ علينا، ليلة ليلة، ثلاث روايات بالتتابع: «ابن حور» و«اليهودي التائه» و«كوخ العم توم».

فيشتد تأثُّرنا أحيانًا. فنهرب إلى فراش «الجدّة الحيفاوية» فتُهدِّىء من روعنا بحكاياتها المكرَّرة عن علاء الدين والفانوس السحري. ولم نَكُ نملّها.

وقرّر والدي، في سنواته الأخيرة في حيفا، ألاّ يموت إلاّ ونحن – أولاده – مجتمعون حوله. كان في تلك الأيام يدعونا إليه مرّة واحدة في الأُسبوع على الأقل معتقداً أنه مسلِّم روحه إلى باريها. كنت قد انتقلت للعمل في القدس. فكنت مضطرًّا للعودة إلى حيفا لا أقل من مرّة في الأُسبوع. فكان، حين كنّا نجتمع تسعة أبنائه وبناته، يبتسم ابتسامة «خبيثة» – أدَّعي أنني ورثتها عنه – ثم يقول لنا: كفى! عودوا إلى بيوتكم وإلى أعمالكم. فبوجودكم حولي تغلّبت على عزرائيل.

وكان صادقًا. فلم يتغلّب عليه ملك الموت إلاّ حين تركناه، نحن جميعًا. وحيدًا أسلم روحه إلى باريها. وحيدًا في بيت العائلة الذي ولدت فيه ابنة عمِّه الوالدة وردة.

لم يبقَ معه، حتى يومه الأخير، سوى الوالدة. فالأُمهات يمكثن في الأرض. وبيت العائلة القديم أيضًا مكث في الأرض. فهو قائم في مكانه حتى يومنا هذا. وكنّا نسمِّيه «العقد». يعقدون «العقيدة» ويعقدون سقف البيت بأعمدة من الخشب السميك مصالبة. والعقد قاعة واحدة تحوطها جدران أربعة من الحجر الضخم في سمك نصف المتر على الأقل. وكان أطفال العائلة يفترشونه خصوصًا في ليالي الصيف بالقرب من نافذة واسعة الصدر. ونوافذ «العقد»

واسعة الصدور كلها أو هكذا حسبناها بالمقارنة مع أحجامنا الصغيرة. وكانت الدنيا بخير فلا يغلقونها علينا، أو هكذا حسبنا دنيانا حين كنّا أوّل من ينام وآخر من يستيقظ. وبنوا، تحت سقف «العقد» وبمقدار النصف من مساحته، مسطبة أشبه بالطابق الثاني كنّا نصعد إليها على سلم خشبي مُتحرِّك وسمّيناها «السدّة». وكانوا يكوِّمون على «السدّة» أكوام القمح والسمسم. وأما خوابي الزيت فكانت في زاوية «تحت» أي على أرض «العقد» نفسه. وفي «الفرصة الكبيرة» – أي العطلة الصيفية – كنّا ننام إما فوق السدّة وإما، حين يكثر عددنا، بالقرب من خوابي الزيت. وكثيراً ما كان خالي رشيد يروي على مسامعنا طرائف ممّا مرّ عليه في «السَّفر بَرْلِك». وهي الحرب الكونية الأُولى، وكيف اختبأ تحت كومة قمح، فوق السدّة، من أعين الجنود الأتراك حين جاؤوا لأخذه جنديًّا إلى الحرب. ولكنهم، في آخر الأمر، قبضوا عليه واقتادوه إلى ساحات القتال حتى الأرض البلغارية. فنجح في الفرار وعاد – كما ادّعى – مشيًا على الأقدام من بلغاريا إلى شفاعمرو حاملاً معه حكايات عمّا مرّ به في طريق عودته الطويل، مشيًا على قدميه، منها ما هو معقول ومنها ما هو نسج خيال أُريدَ به التوكيد على نجاحه في الإبقاء على كرامته الشخصية – إنسانيّته – حيّة تسعى مخفيّة تحت أكوام من الجوع والبرد

والبقّ والقمل وروائح الجثث المتعفّنة.

وفي العام ١٩٥٤، حين أقدم موشي ديان على اقتراف فعلته «المنسيّة» في قرية طيرة بني صعب في المثلث، وأصدر أمره إلى عسكره بالإغارة على بيوت القرية فأعملوا أيدي التفتيش والتنقيب تحت أكوام القمح وفي خوابي الزيت، ودلقوا الزيت على الحنطة وحطّموا أثاث البيوت القروية «التي لم تكن مصنوعة من خشب المهاچوني». وبرَّر فعلة عسكره بأنهم كانوا يبحثون عن مدافع أطلقت قنابلها على طائرة إسرائيلية عابرة، ابتسمتُ ما بيني وبين نفسي تلك «الابتسامة الباطنية» التي ورثتها عن والدي. وتساءَلت، بيني وبين نفسي، هل كان موشي ديان التقى خالي رشيد؟!

في العطلة الكبرى كان خالي رشيد يأتي إلى بيتنا في حيفا وينيخ جماله في ساحة قريبة من البيت. كان يعلفها وكنّا نسقيها. ثم يمضي بنا، نحن الصغار، إلى «العاصمة» راكبين بين أسنام جِماله. فقد كان جمّالاً ومزارعًا في آن واحد. وكان يحمل على جِماله الفحم الخشبي إلى أسواق المدينة من مشاحر شفاعمرو التي اشتهرت بها منذ قديم الزمان ولا تزال تُعرف بها حتى يومنا هذا. فكنّا نقيم وننام في بيت العائلة القديم – «العقد» – لدى جدّتنا مريم الشفاعمرية وجدّنا يوسف «أبو درويش».

لا أذكر الجدّ «أبو درويش» إلاّ وهو طاعن في السن. وهل يصبح الإنسان جَدًا إلاّ بعد أن يصبح ولده والدًا أو والدةً؟ غير أننا رأيناه في أعيننا رجلاً نشيطًا منتصب القامة، فلاحًا محافظًا على التقاليد. وكان يفرض هيبته علينا وكنّا نحب هذه الهيبة. كان يلاحقنا بعصا شيخوخته حتى يعيدنا إلى «العقد» حين كان يلقانا نلعب على البيادر وقد ارتدينا، نحن الفتيان الذكور أيضًا، قمصانًا قصيرة الأكمام لأنها تكشف عن سواعدنا. كان يلوح بعصاه مهددًا أقفيتنا بالضرب. فكنا نحن أولاد المدينة نستجيب له – لا لعصاه – احترامًا لشيخوخته واحترامًا للزمن الذي كان يمثله لا خوفًا من عصا كنّا علمنا أنه لم يستعملها، للقتال وللنزال، إلاّ مرّة واحدة في حياته. وذلك حين فاجأه الباص الوحيد القادم من حيفا مرّة أو مرّتين في الأُسبوع الواحد، وهو غافل يمشي في النزلة عائدًا إلى «العقد». فرفع عصاه في وجه الباص وكرّ عليه حتى أوقفه في اللحظة الأخيرة فناداه سائق الباص: تسلم عصاك وتسلم يا أبا درويش!

كان مضرب المثل في عفَّة اللسان. وقيل إنه لم يتلفّظ بشتيمة إلاّ مرّة واحدة في حياته فلم تكن شتيمة. وكان يزرع أرضه بالتنباك. وكانوا يسمُّونه «التُّتن». وتُروى عنه الحادثة التالية: كانت زوجه مريم تبعد عنه عشرة أمتار أو أكثر، وكانا

يحملان فيما بينهما حبلاً نشرا عليه أوراق «التِّتن» الخضراء حتى تيبس. فناداها أن تُرخي الحبل وأن تمدّه ذراعًا أو ذراعين. كانت أُم درويش ثقيلة السمع. فلم تلتقط أُذناها طلبه فأعاد عليها نداءَه بقليل من الصُّراخ لعله يخترق طبلة أُذنها. فظلّت جامدة في مكانها مثلما فعلت زوجة لوط. فاستشاط أبو درويش غضبًا ولم يتمالك نفسه – وهو أمر نادر الحدوث – فصاح بها وكأنّه يشتمها: «مُدِّي الحبل، يا مريم، الله يمدّ في عمرك»!

وبعد مضي زمن طويل وطويل قيِّض لي أن أزور قطرًا أُوروبيًّا شرقيًّا. وفي أثناء هذه الزيارة، وقد جرت قبل خمسة أعوام، جاءني أحد معارفي رسولاً من لدن عائلة فلسطينية شابة ومبعدة من بلد عربي، وأن الزوجين أصلهما من شفاعمرو. ويدعوانني إلى الغَداء في بيتهما، ففعلت. فوجدتهما في عمر أحفادي. علمتُ منهما أن والديهما نزحا عن شفاعمرو في العام ١٩٤٨، والتجآ، شأن غيرهما من آلاف اللاجئين الفلسطينيين، إلى مخيَّم اللاجئين «اليرموك»، بالقرب من دمشق. وهي ابنة عمِّه وهو ابن عمِّها وقد ولدا في المخيم نفسه. وبعد الزواج انتقلا إلى بيروت في طلب الرِّزق حتى جاء الأدون شارون وطردهما مرّة ثانية. فوجدا في هذه العاصمة الشرقية ملجأهما الحالي.

* ملاحظة: لقد عاد الآن، مع ياسر عرفات، إلى مدينة غزة. وزارني في بيتي. ويحنّ إلى العودة إلى بلدته الحبيبة – شفاعمرو.

وحالاً، حين بدأ في التحدُّث، خصوصًا حين بدأت الزوجة الشابة في الكلام، سمعت أُذناي نغمة النُّطق الممطوطة كأنّها الغناء التي عُرف بها الشفاعمريون من قديم الزمان. تسمّر شعر رأسي بلا أية مبالغة، حين خِلْتُ أنني أستمع إلى صوت ابنة عمّي الشابّة الصغيرة التي مضى على وفاتها خمسون عامًا. كأنّها عادت إلى الحياة وها هي تبتسم في وجهي ابتسامتها القروية الحبيبة وتحادثني بذلك الغنج الشفاعمري الصميمي بلا أي تلوُّث «حضاري».

أثار اندهاشي فضول مضيفي الشفاعمري الشاب. فأوغل في استثارتي مردِّدًا على مسامعي حكايات عن شيطنة هذا الشيخ الشفاعمري أو ذاك، ممّا توارثناه عن آبائنا وأجدادنا. كان يبدأ بالحكاية وكنت أستمر فيها حتى وصل إلى جدّي يوسف وجدّتي مريم و«الشتيمة» التي ألقاها أبو درويش في وجه أُم درويش. ثم إذا به يردِّد الأُغنية التي مطلعها «يا شكري هات الدفتر» بجميع أبياتها التي كانت غابت عنِّي وقد عادت وغابت حتى الآن أيضًا مثلما يغيب المديح عن ذاكرة الممدوح الذي يعرف نفسه. ولم يكن هذا هو السبب في أنني لم

أخبرهما بأن شكري المذكور، في الأُنشودة الفولكلورية الشفاعمرية، هو والدي. بل لأنني أهملت قبره حتى عفا عليه أسفلت الشارع العريض. «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون»، إلا أن تكون حبّات هذا الثرى من أجساد أحبّائنا فيصبح تراب الوطن شاهداً أوحد شامخًا على قبر هذا «الجندي المجهول». كلُّنا من آدم وآدم من تراب. ولا يشعر إنسان بهذه القربى أشدّ وأعمق ممّا يشعر بها المبعدون وعلى رأسهم الشفاعمريون. ففي شفاعمرو اجتمعت أديانُنا الثلاثة: ربٌّ واحد وشفاعمرو واحدة.

قضيت ليلة كاملة في كنف مضيفَيَّ الشفاعمريين الشابين، وأنا أبحث عن تفسيرات لهذه العجيبة – عجيبة إحياء الموتى أو عجيبة الحياة الأبدية. حدّثاني عن أُمور كنت أجهلها: اللاجئون الذين طُردوا من قرية فلسطينية إلى صحارى الغربة حملوا معهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بقريتهم الأصلية. سكنوا سويّة في المخيم الواحد وفي حارة أو رقعة واحدة في ذلك المخيم وأعانوا بعضهم البعض وتزاوجوا فيما بينهم وحافظوا على تراثهم الخاص بقريتهم الأصلية بما في ذلك التراث من لهجة خاصة وغنوة النطق الخاصة بقريتهم. ولو لم يفعلوا هذا الأمر، لو لم تحافظ الأغصان على جذعها، لما كان في مقدورهم تحمُّل حياة غير محتملة.

أمّا ما حدث لسكّان المدن الفلسطينيين فكان مختلفًا جدًا. فبدأتُ، منذ تلك الليلة، في التفكير بروايتي - «إخطيّة» - عن مدينتي حيفا وعمّا جرى لأبنائها العرب. كان مجتمعنا العربي المدني قد قطع شوطًا مرموقًا في سلّم التطوُّر الحضاري بمفاهيم ذلك الزمان، من نقابات مهنيّة ومن حياة ثقافيّة اجتُثّت كلها من أُصولها وبُدِّدت شَذَرَ مَذَرَ. كانت مأساة الشعب العربي الفلسطيني مأساة شاملة. أصابت أُولئك الذين اضطُروا إلى ترك الوطن كما أصابت أُولئك الذين تُركوا في وطنهم. صدق شاعرنا توفيق زيّاد في توجُّهه إلى إخوته، إخوتنا، اللاجئين بقوله:

«فمأساتي التي أحيا
نصيبي من مآسيكم»

غير أنني أدركت، منذ تلك الليلة، أن مأساة المجتمع المدني الفلسطيني أشدّ عمقًا وشمولاً، لا فرق بين مغادر وبين مقيم. هذا وذاك لسان حالهما واحد. فوجدتني أكتب في روايتي عن «إخطيّة» أنْ:

«ذهب الذين أُحبُّهم وبقيت مثل السيف فردًا فارسًا، خلل مجتمع غريب لا يكتفي بأنه يجهل فروسيته وينكرها عليه بل ينكر عليه آدميته أحيانا!».

فرحت أُعزّي نفسي بترديد أبيات لعمرو بن معديكرب:

«مـــا إِن جـــزعـــت ولا هـــلـــعـــت
ولا يـــــردّ بـــــكـــــاي زنـــــدًا
ذهـــب الـــذيـــن أُحـــبّـــهـــم
وبـقـيـت مـثـل الـسـيـف فـردًا».

وفي «إِخطيّة» أيضًا وجدتني أصف مأساة مجتمع حيفا المدني الفلسطيني بالصورة التالية:

«.. عالم متكامل تداعى به المسرح وابتلعه الجوف وهو في ميعة الحركة وفرحة الاندماج في كوميديا الحياة. فمن ديكور تختلط ألوانه وتتلاطم جدرانه، ومن حبال تترامى فتعلق بأرجل أو بأيدي أو بأعناق ناس يتأرجحون. فذلك يتأرجح برجله وذلك يتشبَّث بالحبل بيده. وذلك مشنوق. ومن عارضة خشب مقصوفة يتعلّق بها ممثل كهل سمين فتنوء به فيُصفِّق المشاهدون استحسانًا.

تمتلىء القاعة بالمشاهدين المتحمِّسين.

المشاهدون.

تشتدّ الحماسة بهم. يقفون على أرجلهم يصفِّقون استحسانًا.

الممثلون.

ذلك المعلَّق بالحبل من رجله، ورأسه يتأرجح في أسفله يتطلّع إلى المشاهدين بعينين فيهما أمل. لم تعد الشاشة

تفصل ما بيننا وما بينكم! لم نعد ممثلين وأنتم المشاهدين! القاعة واحدة والناس ناس، أيها الناس!

المشاهدون.

يقهقه المشاهدون استحسانًا ويتقدّمون إلى أمام من شدّة الحماس.

المعلّق بالحبل من رجله لا يراهم إلا بعينيه ولا يسمعهم إلا بأُذنيه ولا يحسّ بهم إلا بصدره وهم يتدافعون فوقه، يشيلون الردم وبقايا الهدم وينظّفون الأرض، يقصّون الحبال السائبة وينتزعون الأخشاب العائبة، ويأتون بالجرافات تحمل الأتربة. فتتطاير من تحتها أوراق كان أخفاها الممثلون في جيوبهم ليعودوا إليها خلسة حين تخونهم الذاكرة.

وكان هناك «مشاهدون» آخرون في ذلك الزمان. ولم يكن عددهم قليلاً ولم يكونوا مشاهدين فقط. وكل فارس، حين يبقى «مثل السيف فردًا»، يرنو ببصره دائمًا نحو المحيطين به من كل جانب ينظر نحوهم بعينَي الأمل والسؤال المصيري – «هل هناك من يقبل التحدّث معنا؟» – هو دائمًا سؤال يوجّهه، فقط لا غير، ذلك «الفارس» الذي بقي وحيدًا «مثل السيف فردًا». ألا يخجل على نفسه ذلك الجزّار الذي يذبح الدجاجة ويذرف دمعة من الرحمة عليها ثم ينظر في عيني الدجاجة الذبيح ويملأ الدنيا صراخًا أن «أُنظروا في عينيها!

حتى دمعة حزن تبخل بها علينا!».

كان هناك، في ذلك الزمان، آخرون. يقينا أنه يوجد، اليوم أيضاً، آخرون. غير أنني أرى بعيني ذاكرتي عدد الناس الطيِّبين في ذلك الزمان أكبر بكثير من عددهم الآن وأكثر شجاعة.

أذكر أنني كنت في مدينة الناصرة في يوم من أيام شتاء ١٩٤٨، حين وقع الصدام المشهود بين جنود يهود شيوعيين وبين جنود يهود آخرين أغاروا على بيوت في وادي النسناس وفي شارع عباس في حيفا ظلّ أصحابها العرب مقيمين فيها، وذلك لطردهم منها واحتلالها.

شرعوا في هذه الغارة القذرة منذ ساعات الصباح الباكر. ولم يكن في تلك البيوت من أهلها سوى العجائز والنساء والأطفال. ولم يكن موجوداً في بيتنا سوى الوالدة، وردة، وزوجتي وطفلتنا التي لم تتجاوز عامها الأول في ذلك اليوم المشهود. ظلّ رفاقنا اليهود الجنود يصارعون المغيرين حتى طردوهم من أكثرية البيوت العربية التي هاجموها. وصديقي الشجاع من ذلك الزمان – أبراهام بن صور – حملني في سيارته العسكرية «الجيپ» وأعادني إلى بيتي في حيفا. لولاه ما كان في مقدوري العودة إلى حيفا في اليوم نفسه. فقد كان ممنوعًا على المواطن العربي أن يسافر من مكان لآخر إلاّ بتصريح سفر من الحاكم العسكري. ونظام التصاريح

العسكرية هذا ظلّ معمولاً به حتى العام ١٩٦٦، أي أُلغي قبل عام فقط من العدوان الحزيراني في العام ١٩٦٧!

دخلتُ إلى بيتي، ملهوفًا، في إحدى ساعات المساء الأُولى من ذلك اليوم. فوجدتُ في بيتنا، مع والدتي العجوز وزوجتي وهي تحتضن طفلتنا، جنديًّا ضخم الجثة من بقايا المغيرين، يرفض الخروج من بيتنا. كنّا في البيت وفي الحارة وحيدين. وكان رفاقنا قد أنهوا المعركة وعادوا إلى همومهم الخاصة. وفي الخارج كان الظلام موحشًا. فجلست أمامه مواجهة. ونظر الواحد منّا في عيني الآخر. وأذكر أننا جلسنا صامتين على هذا الشكل حتى الهزيع الأخير من الليل. كنت ممتلئًا بالحياء المضاعف: حياءً إزاء عجزي وحياءً من أنه يشاركني في الآدمية. وقبل طلوع الفجر قام وخرج. لم تنسَ والدتي وردة، أُم وديع، فضل هذا الشاب اليهودي – أبراهام بن صور – حتى يومها الأخير. فضمّته إلى كنفها ابنًا عاشرًا لها، أخًا لأولادها التسعة. فأين أنت الآن يا أبراهام بن صور؟ هل بلعتك أنت أيضًا فوّهة الخوف من أن يعرف الناس عن «ضعفك» الإنساني في زمن الشباب؟

لا لم نكن نحن الذين تغيّروا يا أبراهام بن صور!

أنت الذي حمل إليّ الخبر عن وفاة والدي وعن بقاء والدتي وحيدة في البيت القديم في شفاعمرو.

ولا أنسى اليوم الذي حملت إليّ فيه، وأنا موجود في الناصرة، قطفًا من الموز الناضج من أرض «الكيبوتس» الذي كنت تقيم فيه حتى نهديه سويّةً إلى والدتي وردة في شفاعمرو ثم نحملها سويّةً بسيارتك العسكرية «الجيپ» عائدة إلى بيتها في حيفا.

أما أنا فاخترت أن أُقسّم قطف الموز سواسية بين الوالدة وبين أُختي التي كانت تقيم في ذلك الوقت في الناصرة. فمررت، وأنا أحمل قطف الموز في طريقي إلى دار أُختي، بسوق الناصرة العتيق. وإذا بولدين صغيرين يتبعانني. فأعطيتهما إصبَعَي موز من القطف. فأصبح ورائي أربعة أولاد. فقطفت لهم من القطف أربع أصابع. فتكاثر الأولاد ورائي ووراء قطف الموز. لا لن يكون قطف الموز نايًا سحريًّا آخر يقود الأولاد إلى الهاوية! ألقيت بقطف الموز كله في وسط السوق ووثبت هاربًا إلى المكان الذي اتّفقنا على أن نلتقي فيه لنسافر بسيارتك «الجيپ» إلى شفاعمرو.

كنتَ على علم بمكان الوالدة في شفاعمرو. وأنا – أيضًا – كنتُ أعلم، أيّ علم، بمكان إقامتها. فكيف أنسى «العقد»؟!

أوصَلَنا «الجيپ» حتى عتبة باب «العقد» مباشرة. للبلدة مدخلان عريضان. الغربي الذي تعوّدنا عليه نحن أولاد حيفا.

والشرقي الذي أذكر أنني لم أطرقه إلاّ في ذلك اليوم. وكلاهما يقود إلى حارتنا وفي مركزها ذلك «العقد» – طلوعًا من المدخل الغربي فيكون «العقد» إلى يمينك ونزولاً من المدخل الشرقي فيكون «العقد» إلى يسارك، وأمامه ساحة كان خالي رشيد يُنيخ فيها جماله.

لم تكن أُم وديع تنتظرنا، بل لم تكن تعلم أنني موجود في حيفا. ومع ذلك وجدناها واقفة على عتبة «العقد» وحيدة عجوزاً بلغت الثمانين تنتظر. ولكن ماذا كانت تنتظر؟

كنتُ أول النّازلين من السيارة فشاهدتني فجأة. كانت قد فقدت كل أمل فلم تعد مجرد «مثل السيف فردًا» بل كانت قد تحوّلت إلى وصمة عار وتجسيم حيّ لوخز ضمير.

نادت عليّ باسمي، مرّة أو مرّتين. ثم وقعت على الأرض مغشيًّا عليها. وفي طريق عودتنا إلى حيفا حاولت أن تهدىء من روعي ومن وخز ضميري بقولها إنها آمنت دائمًا بأنني الوحيد من بين أولادها الذي لن يهجرها. وبأنني سآتي وأُنقذها في اللحظة الحرجة. «كنت أقرأ، بما يشبه التهجئة، ما كنت تنشره في صحيفتك – قالت – وكنت أتابع صامتة النقاش بينك وبين إخوتك».

وبحسّها الفطري أدركت أن ابنها الجديد، اليهودي، يشعر بالإحراج هو أيضًا. فأخذت تحدّثه عن صديقات طفولتها

اليهوديات في شفاعمرو. وأخبرته بأن هذه الصداقة استمرّت في حيفا أيضًا «بعد أن هاجرت عائلاتهن من شفاعمرو إلى حيفا كما فعلت عائلتنا بانتهاء الحرب». صدقت والدتي فيما أخبرت ابنها الجديد اليهودي. فأنا لا أزال أذكر العجائز اليهوديات اللواتي كنّ يزرنها في بيتنا في وادي النسناس. وكنّ يفترشن الأرض متربِّعات فوقها ويتناقشن بأصوات عالية كانت تثير ضحكنا. هل كنّ يأتين إلى بيتنا مع أطفالهن؟ إنني غير متأكِّد من هذا الأمر وأميل إلى الاعتقاد بأنّهن جئن مع الأطفال. ولكن هل نقل يهود شفاعمرو إلى أولادهم أخبار تلك الزيارات العذراء في بيت «المعلم شكري» في حيفا؟ لا أعتقد أنهم فعلوا. فلو كانوا نقلوا هذا التاريخ هم وسواهم لما كانت «الكهانية» قد ظهرت في هذه البلاد، ناهيك عن استشرائها.

أزعم أنني واحد من أُولئك الناس الذين لا يستطيعون أن يروا من القمر إلاّ وجهه المضيء. وأجد التبرير حتى لما يدّعيه أُولئك الأصدقاء اليهود، من ذوي النفوس الحسّاسة، من أنهم لا يصدقوننا حين نعلن عن موافقتنا على تسوية سلمية ثابتة قائمة على نشوء دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل. فأُبرر، لنفسي ولشعبي، ظنونهم هذه بأنها نابعة من وخز ضمائرهم جراء ما ارتكبوه بحقّنا والذي عبّر عنه موشي ديّان بقوله:

«لو كنّا مكانهم..».

لا مكان لهذه «اللو» في التاريخ الفعلي. وأمّا إذا تمسّكتم بهذا المنطق فإني أقول: لو كنّا مكانكم لما سمحنا لرجعيتنا بأن تفعل بكم ما فعلته رجعيتكم بنا. بل أكثر من ذلك: لو جمعتم كل ما في لغات الأرض من «لو» ما استطعتم أن تبرِّروا ولو إساءَة واحدة، ولو أقلّ الإساءَات إضرارًا، من الإساءات التي أُنزلت بمن تسمُّونهم «الشعب الآخر». وإليكم المزيد والمزيد: فإن القضية الحقيقية، في هذا المجال، هي واجب أصحاب الضمير، من أبناء وبنات الشعب الذي يَضطهد ويحتل «الشعب الآخر»، أن يبذلوا كل ما في مقدورهم بذله يومًا يومًا وساعة ساعة – لاجتثاث الشّك الطبيعي في نفوس «الشعب الآخر» المضطهَد (بالفتح) والواقع تحت الاحتلال، من صدق دعاوى السلام والتعايش الصادرة عن شعبهم الذي تقوم حكومته، هي بالضبط، باضطهاد «الشعب الآخر» وباحتلال وطنه. وتعمل خطوة خطوة للقضاء عليه.

لم تستطع أُم وديع التغلُّب على الصدمة التي أصابتها في تلك الأيام. عمرها أصبح وراءَها وأمّا الأكثرية من أولادها وأحفادها فقد أمسوا في ديار الغربة. نَزَلَتْ مرّة إلى نادينا القديم في وادي النسناس للاشتراك في اجتماع لنساء يهوديات وعربيات. كانت الأيام أيام معركة انتخابية. وكانت المتكلِّمة

اليهودية تؤكّد كفاحنا من أجل حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة. وإذا بأُم وديع تقاطعها: هل يعود أولادي؟ فذُهلت الخطيبة اليهودية المجرية. أجابت: يعودون حين يتحقّق السلام!

«كذب – صاحت أُم وديع – ابني إميل لا يكذب عليّ! أخبرني بأن عودتهم ستستغرق – إن تحقّقت – وقتًا طويلاً وحينئذ لن آراهم في بيتنا، سأكون تحت التراب!».

ومنذ ذلك الاجتماع، ودون علمي، أصبح من عادتها أن تذهب سرًّا إلى رقعة من «حديقة عبّاس» القريبة من بيتنا، وتتّكىء على صخرة تظللها شجرة من أشجار الزيتون وتنوح، وحيدة، على حالها بعيدة عن أولادها الغائبين وخصوصًا على مصير ولدها الأصغر، نعيم.

– «يا نعيم أين أنت وماذا جرى لك بعدي يا نعيم!».

ولم أَدْرِ عن عادتها الجديدة هذه شيئًا حتى سمعت طفلتيَّ الاثنتين وهما «تلعبان الجدّة أُم وديع» تنوحان: «يا نعيم!».

وفي ذلك العام تركتنا الوالدة عبر «بوابة مندلباوم» للعيش مع أولادها الذين التجأوا إلى دمشق. وفي دمشق الشام، لا في شفاعمرو، أسلمت روحها إلى باريها.

– «وأمّا أنت فتستطيع أن تبقى هنا. فحياتك أمامك وتستطيع أن تنتظرهم».. بمثل هذه الكلمات ودّعتني الوالدة أُم وديع حين افترقنا في الجانب الإسرائيلي من

« بوابة مندلباوم ».

بقيتُ. عُدتُ إلى حيفا، وكتبتُ قصتي الأُولى في دولة إسرائيل. وكانت عن « بوابة مندلباوم ».

بقيتُ.

حتى هذا اليوم، وما بقيت حيًّا، لا أخال الوالدة إلاّ باقية معي.

فإن الأُمهات يمكثن في الأرض.

شارع عبّاس – حيفا – العام ١٩٤٨

(من رواية « خرّافية سرايا بنت الغول » التي صدرت في العام ١٩٩٢)

كانوا لا يكفُّون عن حارتنا، ليل نهار، بحثًا عن نسائنا « المتسلّلات » مع أطفالنا « المتسلّلين ». وكانت نساء الحي يوقفن جارة « محصيّة »[١] في أول الدرج[٢] بالمناوبة. فإذا أحسّت بحركة مريبة، من مثل وقوف سيارة مريبة وقفة مريبة، صاحت بأعلى صوتها « تخبّوا مليح أجاكم الريح »! فينتقل الصوت من جارة إلى جارة. فتحمل « المتسلِّلة » طفلها « المتسلِّل » أو أطفالها « المتسلِّلين » – ويكون الأصغر محمولاً والباقون متشبِّثين بأذيال ثوبها – وتخترق سياج حديقة عباس من فتحة أعدّها الرجال سلفًا وغضّ حارس الحديقة البهائي عنها دون أية مصارحة.

وما كانت الجارة « العين » ترفع عقيرتها، بالنداء الشعبي كاملاً – « تخبّوا مليح أجاكم الريح » – إلاّ إذا لم يكن بين المغيرين « يهودي إبن عرب ».

وكانت الجارات، في حارتنا، يتناوبن على أداء هذه المهمّة. وكان يقيم، في حارتنا، عائلتان يهوديتان. فاشتركت الجارتان اليهوديتان في هذه المهمّة. إحداهما پولندية على زوج پولندي. والأُخرى طبرانية على زوج پولندي. وكانت هذه،

الأخيرة، تتقن نطق العربية مثل أهلها. وكانت من أهلها. كانت خفيفة الروح ثقيلة الوزن. فتتثاقل في مشيتها وتصيح عن عمد «أجاكم الريخ أجاكم الريخ». وكانت تصرّ على جارتنا البولندية أن تنطق الريح ريحًا بحاء قرشية من قوارح حنكها الساكن سكون سطح البحيرة ساعة الفجر. وكان اسمها «ماشا» واسم زوجها «ليون». وكانت لها طفلة في عمر أطفالنا كانت تنزل معها إلى «برج المراقبة» ثم تطلقها، لدى أول نأمة مريبة، فتصعد الدرج وهي تردِّد «غزا غَمى». وقصدها أن تقول: «عزا وعمى». فتتراكض نساؤنا حاملات أطفالهن ومخترقات فتحة السياج ومختبئات وراء صخرة فاطمية أو شجرة رومية في حديقة عباس. وأبَحتُ لقلمي أن يستبيح اسمها واسم زوجها لأنّهما لم يطيقا البقاء في حارتنا المنكوبة ولم يطيقا البقاء بعيدين عنّا. فتركوا البلاد كلها وهاجروا إلى كندا. وأمّا الطبرانية وزوجها البولندي فأحفظ ذكراهما في سرّي – بير ما له قرار – وأنها كانت تُصر، في مطلع كل غزوة، على إيواء نسائنا «المتسلِّلات» وأطفالنا «المتسلِّلين» في بيتها. فتجيبها الجارة «المتسلِّلة»: «لا، يا جارتنا. يكفينا شقاؤنا. وما ذنبك فتَشْقَين وأولادك معنا؟ وهل يستطيعون الانتقام من صخرة أو من شجرة في كرمل»؟!

إضافة حديثة

في مساء يوم من أيام الصيف، من العام المنصرم ١٩٩٥، عدتُ إلى داري في الناصرة فوجدت صوتًا نسائيًا مسجلاً على جهاز التلفون في البيت. إن «ماشا» موجودة مع زوجها «ليون» في بيت أحد معارفهما في مدينة بات يام بالقرب من تل أبيب. وأنها ترجوني الاتصال التلفوني بها وبزوجها قبل عودتهما القريبة إلى كندا. وكانت تتكلّم باللغة الإنجليزية. وسجلت رقم التلفون في بات يام.

فاتصلت، لتوّي، بذلك الرقم. وطلبت التحدّث إلى «ماشا» أو إلى «ليون». وذكرت اسمي. فجاءَني صوت «ليون» يتحدث باللغة الإنجليزية أيضًا. قال إنه عائد الليلة إلى كندا. وكان حاول الاتصال بي عدّة مرّات ولكن لا جواب. ورجاني أن أزورهم في كندا في أقرب مناسبة. وكان صوته متهدِّجًا. وقال إن زوجته «ماشا» تودّ الحديث معي أيضًا. وإذا بصوتها وكأنّها تبكي. رجتني أن ألقاهم سريعًا، في كندا، قبل أن يفارق زوجها الحياة. فلم أشأ أن أُخبرها بأن حالنا واحدة. بل وعدتها خيرًا.

وفي هذه الأثناء توفيت جارتنا الطبرانية بعد أن كان زوجها قد سبقها إلى مفارقة الحياة. وكان أولادي وأولادهما قد تربّوا

سوية. غير أن الدنيا كبرت، مثلما يبدو. ولا أُريد أن أبحث عن أي سبب آخر لهذه القطيعة.

لُكع بن لُكع

جاء في «القاموس المحيط»، للفيروز آبادي، أن «اللُّكَع» هو «اللئيم والأحمق ومن لا يتجه لمنطق ولا غيره». أي أن تصرُّفاته لا تستقيم مع أي منطق أو تفكير سليم. و«اللِّكِع»، في العامية، هو الأحمق وثقيل الظلّ وكثير الكلام الذي لا معنى له.

وفي شباط (فبراير)، ١٩٨٠، أصدرت «حكاية مسرحية» بهذا الاسم – «لُكع بن لُكع» – استشهدت فيها بالحديث النبوي الشريف أنه «لا تقوم الساعة حتى يلي أُمور الناس لُكع بن لُكع». جاءَت استعراضًا رمزيًا ساخرًا لعلاقة الشعب العربي الفلسطيني بالأنظمة القائمة في منطقتنا من هذا العالم، العربية والإسرائيلية. فوجدت أن «لُكع بن لُكع» هو الذي يحكم في هذه المنطقة. فهل اقترب «قيام الساعة»؟!

وسمّيتها «رواية مسرحية» من حيث أنني اخترتُ أُسلوب السرد الروائي لمسرحية افترضتُ أنني أُشاهدها مع جمهور مشاهدي هذه المسرحية التي تعرض أمامنا على المسرح. وحاولتُ أن أُعبِّر عن مشاعر المشاهدين، وأنا بينهم، إزاء ما يشاهدونه من أحداث المسرحية المعروضة أمامهم على المسرح.

وجاء أُسلوبي، في هذه الرواية المسرحية، رمزيًا شديد

الرمزية. وربما كان هذا هو السبب الذي جعلني لا أعرضها للترجمة إلى أية لغة حتى الآن. ومع ذلك أثارت اهتمامًا واسعًا في العالم العربي. فأعادت «دار الفارابي»، في بيروت، لبنان، نشرها في صيف العام نفسه، ١٩٨٠. وجرى تمثيلها في سوريا وفي مصر وفي بلدان المغرب العربي.

وأحداث عينيّة هي التي دفعتني إلى تأليف هذه «الرواية المسرحية» التي أردتُ فيها تنبيه الأجيال الفلسطينية الشابة إلى المحاولات الجارية لإبقاء ذاكرتها «عذراء». أي قطع الصلة بينها وبين تجربتنا المأساوية، نحن الذين واكبنا تاريخ المأساة الفلسطينية. وتهكّمت، تهكُّمًا لاذعًا، على أُسلوب «المزاودة» الفارغة في العلاقات ما بين الفصائل (التنظيمات) الفلسطينية.

ومن أهم الأحداث، التي عالجتُها في هذه «الرواية المسرحية» هو قيام مسلّحين فلسطينيين بالسيطرة على مدرسة يهودية في شمالي البلاد وأخذ طلاب المدرسة رهائن. وقد نجح الجيش الإسرائيلي في قتل المسلّحين الفلسطينيين الثلاثة وفي إنقاذ الطلاّب. وقامت الجماهير اليهودية الغاضبة بإحراق جثث القتلى الفلسطينيين الثلاثة في ساحة المدرسة. كانوا يقذفون بالجثث من طابق المدرسة الثاني إلى ساحة المدرسة حيث كانت النار مشتعلة لإحراقهم. وخلال هذه الهستيريا

قذفوا بشاب يهودي شرقي إلى النار وهم يحسبونه واحداً من المسلّحين الفلسطينيين فاحترق ومات معهم.

فحملتهم، في «الرواية المسرحية»، إلى السماء، وركّبْتُ لهم أجنحة ملائكة إلاّ أن أطراف الأجنحة محترقة. وكانت أسماء الفلسطينيين الثلاثة هي: «سعدي أبو شارب» و«سعيد أبو شاربين» و«سعادة شارب الدم». وأما القتيل اليهودي، بالخطأ، فسمّيته باسم «سعادية قلب الأسد».

ويجري حوار ما بينهم. وأحد القتلى الفلسطينيين يدّعي أنه هو الذي قتل «سعادية» اليهودي. فيتسابق الآخران على الادعاء أنّهما هما اللذان قتلاه. فيرتاح القتيل اليهودي، بالخطأ، إلى هذه المزايدة. فيعلن أن القتلى الفلسطينيين هم الذين قتلوه. ويطلب معاقبتهم. فيصرخ «الحكواتي»:

«كفى! كفى!

القتيل لا يُقتل مرّة ثانية!

القتيل يتكلّم صمتًا.

صمتًا لا يمكن إسكاته!

دعوا الأُم الثكلى تتكلّم»!

فنسمع نحيب نساء. كل أُم تبكي ولدها. الأُم الفلسطينية تبكي ولدها. والأُم اليهودية تبكي ولدها.

وفي «الرواية المسرحية» أُم، سميتها باسم «بدور»، تمثل

الأُم الثكلى لدى الفلسطينيين والإسرائيليين – الأُم الأُم لا أكثر ولا أقل. وتقوم «بدور»، في نهاية المسرحية، بوضع أكاليل زهور على أضرحة القتلى: سعدي وسعيد وسعادة وسعادية أيضًا. لا فرق. و«الحكواتي» يقول:

«– الحكواتي: إني أرى بصيص نور.

– بدور: شقائق نعمان تزهّر فوق أضرحتنا.

– الحكواتي: وأضرحة أشقّاء لنا.

شقّوا على النفاق عصا الطاعة.

يحرصون على ضريح سعدي

كما يحرصون على ضريح سعادية.

– بدور: حرصًا على الأحياء.

– الحكواتي: حرصًا على الأحياء».

والآن، في هذا العام أتساءَل: هل بصيص النور، الذي رأيته منذ العام ١٩٨٠، أي قبل ستة عشر عامًا، أصبح حقيقيًا أم أنه لا يزال مجرّد «سراج الغولة» أو «سراج الليل» أو «مصباح علاء الدين» الخيالي؟! إن مجرد اضطراري إلى هذا التساؤل يثير في نفسي، على الأقل، مشاعر القلق.

الخاتمة

نحن ناس، أيها الناس!

أسباب عديدة، تراكمت على مرّ الزمن، لخلافي الحاد مع قيادة الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي أدّى إلى خروجي من هذا الحزب مع أنني كنتُ واحداً من مؤسّسيه الأوائل. والآن، وقد مضى على خروجي من الحزب سبعة أعوام (١٩٨٩)، أستطيع أن أُواجه مصيري الشخصي هذا مواجهة متّزنة بدون انفعالات اللحظة كما لو أنني أُواجه المصير الشخصي لإنسان غيري أنا.

ليس هذا هو موضوعي، الآن، مع أن قراري ذلك – بالخروج من الحزب الذي أسهمت في تأسيسه وقرَّر مصيري الشخصي منذ نعومة أظفاري – كاد أن يحطّمني في ما بقي لي من عمر. وكنت أُعزّي نفسي بأن ما بقي لي من عمر لا يستأهل أي تحطيم فوق ما حطّمته الشيخوخة. ممّا لا شكّ فيه أن حركة «التغيير والمصارحة» التي قام بها ميخائيل غورباتشوف، خصوصاً في دعوته إلى إنهاء البون الشاسع ما بين السياسة والأخلاق، شجّعتني على حسم خلافي القديم مع قيادة الحزب بقدر ما أعادت إليَّ الثقة بالنّفس وأنني لست «انتهازيًا» مثلما حاول زملائي إقناعي حتى كدتُ أن أقتنع. فصرتُ أتصرّف

من منطلق الدفاع عن نفسي من تهمة «الانتهازية».

كنتُ قد أصدرت روايتي، «المتشائل»، في العام ١٩٧٤. أي قبل أكثر من عشر سنين على ظهور حركة غورباتشوف في الاتحاد السوفييتي. وسرعان ما أنهكني السؤال الملحاح عن «الطبقة الاجتماعية» التي يمثِّلها «المتشائل». فساعدني ميخائيل غورباتشوف، فيما بعد، على الاهتداء إلى جواب أعاد الاطمئنان إلى نفسي. وذلك حين دعا حزبه إلى عدم الاكتفاء برؤية الصراع الطبقي في مجتمعه. بل دعاه، أيضًا، إلى رؤية الصفات الإنسانية المشتركة لطبقات المجتمع المختلفة. لم أكن أُفكر بهذه القضايا حين كتبتُ رواية «المتشائل». بل كنت أُدافع عن حق «الأكثرية الصامتة» في أن تصمت. حسبت أن الضعف الإنساني، الذي يدفع بالناس إلى انتظار الفرج عبر العجائب الخارقة، هو من الصفات الخاصة بشعبي الفلسطيني الذي تخلَّى عنه الإنس والجِنّ. فلمّا تُرجم «المتشائل» إلى اللغة العبرية، وإلى خمس عشرة لغة فيما بعد، وقوبل بترحاب مدهش، وجدتُ أن هذه الصفة تجمع ما بين البشر جميعًا.

كنتُ، في صيف العام ١٩٧١على ما أذكر، أستجمّ على شاطىء بحر الشمال في «ألمانيا الشرقية». وفي صباح يوم من أيام ذلك الصيف جاءَني أحد مُضيفيَّ و«بشَّرني» بأن

الشيوعيين السودانيين قاموا بانقلاب عسكري واستولَوا على الحكم في السودان. فبكيت مثلما يبكي طفل وجد والدته ملقاة على الأرض أمامه ميتة لا حراك فيها: هل يُعقل أن يكون السودان أول بلد عربي يبني الاشتراكية؟! بكيت لأنني توقّعت المصير نفسه الذي آل إليه العديد من معارفي من قادة الحزب الشيوعي السوداني – الإعدام. وكان هذا المصير نفسه، قبل عدة سنوات، مصير أحبّائي من قادة الحزب الشيوعي العراقي. فهل كُتب علينا، نحن الشيوعيين العرب، أن نموت دون أن نتنازل عن أعلام «الثورة النقيّة»؟! كيف يجيز رفاقنا الأُوروبيون لأنفسهم ما لا نجيزه لأنفسنا من حرص على أرواحهم وعلى أرواح مؤيِّديهم؟!

على شاطىء بحر الشمال، وللتوّ، كتبت فصلاً منفرداً من مسرحية أردت أن أُسمّيها باسم «الصمت والبحر». وفيما بعد أدخلت هذا الفصل، مع تعديلات ملائمة، في روايتي «المتشائل» – هو الفصل الثالث عشر من الكتاب الثاني. وهو النقاش الحار بين «باقية» وولدها «ولاء» الذي استحكم وحيداً في خرائب قرية الطنطورة على شاطىء البحر المتوسط وقد أحاط به عسكر إسرائيل مهدِّدين: إمّا أن يستسلم أو أن يقتلوه رميًا بالرصاص. وحاولت والدته، «باقية»، إقناعه بأن يُسلِّم سلاحه وينقذ نفسه ووالديه.

كنت قلقًا، طول سنوات عمري المنقضية، على مصير الأجيال الشابّة التي ربّيناها في بلادنا وفي العالم العربي الواسع. وأقلقتني، بشكل خاص، محاولة يوسف ستالين انتزاع إنسانيّتنا. وذلك في قوله المُذهل: إن الشيوعيين «جُبلوا من طينة خاصة» أي غير طينة البشر! فمن كان ضَعفه الإنساني يتغلّب عليه كنّا نتّهمه بتهمة «الانتهازية» والتخاذل ونعتبره، أحيانًا، مارقًا وعدوًّا. وفي روايتي الأخيرة – «سرايا بنت الغول» – اكتشفت كهفًا فلسفيًا آخر، بالإضافة إلى «كهف أفلاطون»، في مسيرة المعرفة الإنسانية. وأسميته «كهف لينين»، إشارة إلى الصورة التي صوّر بها هؤلاء «الانتهازيين» و«المتخاذلين» في مؤلفه «ما العمل؟». وذلك في حديثه عن «المستنقع»:

«ها نحن سائرون، في جماعة متراصّة، عبر ممر وعر وشديد الارتفاع. ويأخذ الواحد منّا بيد الآخر أخذًا ثابتًا. محاصرون نحن بالأعداء من كل جانب. وعلينا التقدُّم إلى أمام على الرغم من قصف نيرانهم غير المتوقِّف تقريبًا. كنّا اجتمعنا، باختيارنا الحر، وراء هدف النضال ضد العدو لا وراء التراجع عائدين إلى المستنقع تحتنا الذي لم ينفكّ سكانه عن تقريعنا، منذ اللحظة الأُولى، على انفصالنا (عنهم) في جماعة متميِّزة وعلى اختيارنا طريق الكفاح عوضًا عن طريق التراضي

(المساومة). وفي لحظة من اللحظات يأخذ أفراد من بيننا في الصراخ: دعونا نعود إلى المستنقع! فنعيب عليهم هذا الوهن. فيردُّون علينا معاتبين: ما أشدّ جهلكم! ألا تخجلون من إنكاركم حرِّيتنا في التّوجُّه إليكم كي تسلكوا طريقًا أهون وأسلم؟ بلى، أيها السادة، فإنكم أحرار لا في توجيه هذا النداء إلينا، فقط، بل في أن تذهبوا أنتم أنفسكم حيثما شئتم الذهاب حتى العودة إلى المستنقع. وصراحة نعتقد أن المستنقع هو المكان الجدير بكم ونحن مستعدون لأن نقدم إليكم كل عون في تحقيق مبتغاكم هذا. ولكن، فكّوا أيديكم من أيدينا. ولا تتشبثوا بنا ولا تلوثوا كلمة الحرية السامية. فإننا نحن، أيضًا، أحرار في النضال ضد المستنقع وليس ضده فقط بل، أيضًا، ضد أُولئك الذين يعودون إلى المستنقع».

وأتبعت هذا الاستشهاد، في روايتي «سرايا»، بتعابير الحسرة وتأنيب الضمير التالية:

«قلت: من قديم الزمان وسالف العصر والأوان أرّقني المصير الذي كانت تؤول إليه الحركات الشيوعية في شرقنا القريب والبعيد، كل عشر سنين أو خمسة عشر عامًا مرّة تلو مرّة، مصير الحركة القرمطية والإسماعيلية والباطنية في زمانها. وكانت أوّل من نادى المنتسبين إليها بيا رفيق! فلماذا لم نرفق بأنفسنا؟ ألم يكفنا عنت الكفاح ضد المستنقع فضممنا إليه

من ترفّق بنفسه وبعياله؟! كيف يكون حالنا، اليوم، لو تعاملنا معهم تعاملي مع المتشائل؟ وكيف لا ألوم نفسي على تردُّدي في الخطوة الأخيرة»؟!

ظهرت الحركة الإسماعيلية، في الدولة الإسلامية، في مطلع هذه الألف من السنين التي نودِّعها الآن. ووضعت للمنتسبين إليها مستويات من الطاعة والتضحية لا قِبَل للناس العاديين على تحمُّلها. فأخذ قادة الإسماعيلية يتّهمون الجمهور الواسع، من الناس العاديين، بالخمول وبالتردُّد وحتى بالخيانة. وما من إنسان يرضى بأن يُتّهم بالخمول وبالخيانة، خصوصًا ذلك الإنسان الذي نسمِّيه بالإنسان العادي لأنه يولد ويموت غير متميِّز عن الأكثرية الساحقة التي تنوء بأثقال البحث عن اللقمة. فجاءَت نهاية الحركة الإسماعيلية على أيدي هؤلاء الناس العاديين الذين جاءَت هذه الحركة للدفاع عنهم.

والمستشرقون الأُوروبيون اتّهموا قادة الحركة الإسماعيلية بأنهم سيطروا على أعضائها بتعويدهم على تعاطي المخدِّرات ومنها الحشيش. فسمّوهم باسم «الحشّاشين». وافترضوا أنه من هذه التسمية أُخذت كلمة «Assassin» الأُوروبية التي تُطلق على مقترف الاغتيال السياسي. أمّا الكاتب اللبناني الكبير، أمين معلوف، فقد توصّل إلى أنهم كانوا يسمُّون أنفسهم باسم «الأساسيين» – أي «الأُصوليين» في تعبيرنا

الحديث – وأنه من هذه التسمية أُخذت كلمة « Assassian » الأُوروبية. وأرى إلى أنه محقّ في هذه التسمية. فمن غير المعقول أن يكونوا سمّوا أنفسهم باسم « الحشاشين ». ومن كلمة « الأساسيين » تنبّهت إلى ما أسميته باسم « الأُصولية العَلمانية » التي تسير جنبًا إلى جنب مع « الأُصولية الدينية ». وكلاهما يتعارض مع الضعف الإنساني الذي وجدته أصدق ميزان لمدى إنسانية الإنسان.

وكان الفارس والشاعر العربي في زمن الحروب الصليبية، أُسامة بن منقذ، تنبّه من قبل ألف عام إلى هذه الحقيقة نفسها في وجهها الآخر. وذلك حين تنبّه إلى أن الشجاعة والقوة لا توحدان ما بين بني البشر بل توحّد بينهم وبين البهائم. فقال، في كتابه الشهير باسم « كتاب الاعتبار »، أنْ: « سبحان الخالق البارىء. إذا خبر الإنسان أُمور الإفرنج سَبَّح الله تعالى وقدَّسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير كما في البهائم فضيلة القوة والحَمْل ».

وآلمني كون الضحية الفلسطينية تستحي، في أحيان كثيرة، من كونها ضحية. وتستحي من ضعفها الإنساني. ولديّ أمثلة عديدة عن مناضلين فلسطينيين اختاروا أسماء حركية رهيبة في حين أن والديهم أغدقوا عليهم أسماء إنسانية جميلة. وشعراء فلسطينيون يصولون ويجولون في قصائدهم مع أن

الواحد منهم، في حياته العادية، لا يجرؤ على ذبح دجاجة. وصرتُ، بعد هذه التجربة، أعتبر روايتي عن «المتشائل» نشيد الأنشاد في الدفاع عن إنسانية الإنسان الفلسطيني التي تجد التعبير الأصدق عنها في ضعفه الإنساني. أمّا الحركات الأُصولية، الدينية أو الدنيوية، فلا مستقبل لها لأنها تتعارض تعارضًا عدائيًا مع الطبيعة الإنسانية – الضعف الإنساني.

وصرتُ أعتقد أن المهمّة الأساس، أمام مبدعي الأدب والشعر ومختلف الفنون، هي البحث عن هذه اللؤلؤة – الضعف الإنساني – في أعماق البحور الإنسانية.

وهذا، أيضًا، هو ما أوصلنا إلى ما نسمّيه باسم «أنسنة العدو». وكان بعضنا أسهم، عبر الكشف عن هذه اللؤلؤة، في الظاهرة المثيرة للاحترام – ظاهرة الطفل الفلسطيني الأعزل الذي لم يكن يتردّد في مواجهة جندي الاحتلال المدجّج بالسلاح. فقد أصبح يدرك أنه يوجد، تحت اللباس العسكري، إنسان يتميّز، مثله مثله، بالضعف الإنساني. وكان على زملائنا اليهود أن يبذلوا جهدًا كبيرًا حتى يتخلّص مجتمعهم من الظاهرة الشيطانية، ظاهرة الجندي الذي لا يتورّع عن توجيه رصاص بندقيّته نحو صدر طفل فلسطيني أو طفلة. فكيف يعود إلى بيته وإلى أطفاله بعد هذه الفعلة؟!

منذ العام ١٩٨٣، فقط، بدأت في التعرُّف المباشر على

زملائي اليهود من أهل الأدب والشعر والفن. فالتقيت واحة كانت غائبة عن ناظري وأنا قابع في قفص الأُصولية العَلمانية. سأبقى أحترم وأُحب رفاقي الشيوعيين اليهود على إخلاصهم وتفانيهم في الدفاع عن قضية شعبي العربي الفلسطيني. ولكني آخذ على بعض القياديين منهم رغبتهم الباطنية في إبقائنا بعيدين عن المجتمع الإسرائيلي كما هو قائم بالفعل، بخيره وبشرِّه. كانوا يحاولون إقناعنا بأنه لا خير يُرتجى من هذا المجتمع الاستيطاني، خصوصًا من أهل الأدب والشعر والفن الإسرائيليين. فهذا صهيوني وذاك انتهازي وثالث معادٍ للشيوعية. وكل ذلك صحيح في أغلب الأحيان. ولكن، كيف سنتعايش مع هذا المجتمع؟

حتى قيّض لي، ابتداءً من العام ١٩٨٣، المشاركة في تأسيس لجنة المبدعين المشتركة – الإسرائيلية والفلسطينية ضد الاحتلال ومن أجل السلام وحرية التعبير. وجرى اختياري، مع صديقي وزميلي يورام كانيوك، رئيسًا مشاركًا لهذه اللجنة المشتركة. حاولنا أن يتفهّم الواحد منا مصاعب الآخر وضغوط مجتمعه عليه واحترام هذه المصاعب. فكان التفهُّم والاحترام متبادلين. وأشدّ ما أدهشني وفاجأني هو الصورة المشرقة التي تبدّت لي في هذه اللقاءات المباشرة. وكانت مغايرة تمامًا للصورة التي دُسَّت في مخيلتي في السابق. فصرت أسمع

همسًا حواليّ بأن هذه الصورة الإيجابية نابعة من انتهازيتي.

لم تكن مسطرتي، في التعامل مع زملائي اليهود، مسطرة أُصولية أو حزبية ضيّقة. إنما هي قائمة على حاجتنا المتبادلة إلى البحث عن سُبل التعايش ما بين شعبينا في وطن واحد. كانوا يعترفون أمامي بأنهم يشعرون بالخجل، لأن مجتمعهم أفرز حكومة يمينية وعنصرية معادية للعرب. وكان ذلك في زمن حكم الـ« ليكود ». فكنت أقول لهم إنه لا داعي يدعوهم إلى هذا الشعور ما داموا يعارضون هذه الحكومة ويعملون على إسقاطها. وكنّا، في هذه اللجنة المشتركة، نمثل الأكثرية الساحقة من أهل الإبداع الفنّي الإسرائيليين والفلسطينيين. ومع ذلك كان زملاؤنا اليهود يعتذرون بأن الأكثرية في مجتمعهم لا تحمل الأفكار نفسها التي يحملونها. فكنت أقول لهم إنهم، شأنهم شأننا، لم يولدوا من إصبع جوبتر ولا من الحائط كما نقول نحن العرب. بل وُلدوا من صلب شعبهم ليكونوا ضميره غير الملوّث. فأسهمنا، سويةً، إسهامًا متواضعًا، في إسقاط حكم اليمين.

ولم يتعثّر نشاطنا إلاّ بعد أن فاجأنا السياسيون، من كلا الشعبين، بالاتفاق على المصالحة التاريخية بينهما. فظنّ العديد منهم أنه لم يبقَ لهم من دور ما دامت مسيرة السلام جارية وأنهم لن يُدْعَوا إلى « خدمة العلم » – علم السلام –

إلاّ حين تتعثّر هذه المسيرة. ولم نستيقظ إلاّ بعد اغتيال إسحق رابين. ولكننا لم نستيقظ إلاّ بعد أن أنهكتنا الشيخوخة بأمراضها الفعلية والوهمية. وخوفي أن تكون هذه اليقظة يقظة اللحظة فحسب. ثم نعود، مرّة أُخرى، إلى شخيرنا المعتاد عن «الفن من أجل الفن»! يقينًا أنه لا يحقّ لأي كائن أن يفرض علينا شعارات سياسية في أعمالنا الأدبية. ولكنني وجدت أن مجتمعاتنا تحترم المبدعين من بينها حتى أصبحوا منابر شعبية عالية يستمع الناس إليها باحترام وتقدير. فلا نستطيع التهرُّب من مسؤولياتنا أمام مجتمعاتنا التي أحلّتنا هذا المحل العالي. ولدى كل واحد منّا طريقه إلى وسائل الإعلام في مجتمعه يستطيع، من خلالها، القيام بمسؤوليته السياسية. وهذا ما يفعله العديد منّا دون أن ينتظر من السياسيين أيّة كلمة ترحيب.

لقد نجحنا في تأليف وفد من أعضاء لجنتنا المشتركة، من كبار الأُدباء والشعراء والفنانين والمفكرين اليهود والعرب، لزيارة ياسر عرفات في غزة في اليوم الثاني لعودته إلى وطنه في ٣ تموز (يوليو) ١٩٩٤ وتهنئته بسلامة العودة إلى أرض الوطن. فاستقبلنا ياسر عرفات ورفاقه بترحاب أصيل تبادلنا فيه التهاني والعهد على مواصلة المسيرة السلمية.

وقد نُلام، جميعًا، على عدم استمرارنا في هذا النشاط

المبارك. ولكنّنا كنّا، جميعًا، ضحايا المصاعب التي واجهت المسيرة السلمية ولا تزال تواجهها. فلا يصحّ، أخلاقيًّا، لوم الضحية. لقد كنّا اتفقنا، في العام ١٩٨٨، إسرائيليين وفلسطينيين، على برنامج سلام أفضل بكثير من شروط مسيرة السلام الحالية. اتّفقنا على قيام دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل بحدود الرابع من حزيران ١٩٦٧، وأن تكون القدس الموحَّدة عاصمة للدولتين. واتفقنا، أيضًا، على أن تقوم الدولتان المتسالمتان بالتفاوض على حل قضية اللاجئين الفلسطينيين بموجب قرارات الأُمم المتحدة. وفي العام نفسه، ١٩٩٤، عقدنا لقاءً واسعًا في مدينة نابلس بين الكتّاب الفلسطينيين والإسرائيليين أكدنا فيه التزامنا بهذا البرنامج وأضفنا إليه المطالبة بإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين جميعًا. واقترحنا حلاً لقضية المستوطنات الاحتلالية: إمّا أن يعترف المستوطنون بالدولة الفلسطينية وشرائعها وإمّا أن يعودوا إلى داخل إسرائيل.

ويشعر العديد من زملائنا اليهود بالضياع نتيجة للحملة الجارية في بعض الأقطار العربية ضدّ ما يسمّونه باسم «التطبيع الثقافي» مع هؤلاء الزملاء اليهود أنفسهم. فهم يرون ما يجري، في الوقت نفسه، من تطبيع مع السلطة الإسرائيلية الحاكمة ومع أُدباء هذه السُّلطة، في الوقت الذي تقوم هذه

السُّلطة بإهمال هؤلاء الزملاء الذين سبقوا المجتمع الإسرائيلي كله في الدعوة إلى السلام العادل وإلى المصالحة بين الشعبين.

يقيناً أن السياسيين قد سبقونا في تقرير المسيرة السلمية ومصير المسيرة السلمية. ولكن، هذه هي مهمتهم في المقام الأول. وما كانوا يستطيعون القيام بها لولانا ولولا الدور الطليعي الذي قمنا به على مدى السنين الماضية. ولا أعتقد أنهم يستطيعون إنجاز مهامّ المسيرة السلمية بدوننا وبدون أن نقوم بدورنا الذي لا يستطيع القيام به سوانا.

ويبدو لي أن هذا الدور كان، ولا يزال، همِّي الأول في أعمالي السياسية والأدبية. وقد يكون هذا الهمّ هو الذي جعلني أستمر في الحياة على الرغم من الإحباطات ومن أوجاع الشيخوخة التي تكاد أن تكون غير محتملة.

ومن المثير أن تعيد صداقتي المباشرة والمتأخِّرة، مع هؤلاء الزملاء اليهود، ذكريات شبابي وأيام دراستي في مدينة حيفا مسقط رأسي. تلك كانت أيام ما قبل السياسة حين قامت علاقات زمالة وصداقة صميمية مع زملائنا اليهود في المدرسة الواحدة أو في الحارة الواحدة. وفي روايتي عن «المتشائل» رويت حكاية «المتشائل» مع طفل يهودي ووالده على شاطىء قرية «الطنطورة» المهدومة وبعد أن ضاع ابنه في لجّة البحر: «كنت أذهب إلى شاطىء الطنطورة وقد أصبح عامرًا

بالمستحمِّين. فأقعد قعدة «ولاء» على صخرته في لسان البحر. وأُرسل خيطي وأُناديه في قلبي أن يرد علَيَّ.

فإذا بطفل يهودي وقد قعد إلى جانبي دون أن ألحظه يفاجئني بالسؤال: بأيّة لغة تتكلم، يا عمّاه؟

– بالعربية.

– مع من؟

– مع السّمك.

– والسّمك، هل يفهم اللغة العربية فقط؟

– السّمك الكبير، العجوز، الذي كان هنا حين كان العرب هنا.

– والسمك الصغير، هل يفهم العبرية؟

– يفهم العبرية والعربية وكل اللغات. إن البحار واسعة ومتّصلة. ليس لها حدود وتتّسع لكل السمك.

– يا إلهي!

فيناديه والده. فيخفّ إليه. فأسمعهما يتحدّثان. فأهشّ فيهما وأبشّ. فيحسبني الطفل سيِّدنا سليمان. ويشيران نحوي. فيبتسم والده. فيمرّان قريبًا. فأكبر في عينيه حتى يصرّ على البقاء معي. فأُعطيه من صيدي سمكة صغيرة. فيحدِّثها فلا تتكلّم. فأقول له: إنها لا تزال صغيرة. فيرمي بها إلى البحر كي تكبر وتتعلم النطق. فأقول في نفسي: لو

بقي الناس أطفالاً لما كبر ولاء ولما ضاع. ألم يكن الرجل الكبير، في يوم من الأيام، طفلاً صغيرًا»؟!

كنتُ أقصد السياسة، لا كبر السنّ. ويهمُّني الآن تسجيل ملاحظتي التالية، التي كنت قد تنبّهت إليها منذ ظهور الصعوبات في المسيرة السلمية الحالية. وهي أن المسؤولين الإسرائيليين قد أضاعوا فرصة العمر التي ألححنا عليهم بأن لا يضيعوها من حيث أن التاريخ قدَّمَنا، نحن العرب الفلسطينيين الذين صبرنا على البقاء في بلادنا، في إسرائيل، جسرًا للسلام مع بقية شعبنا العربي الفلسطيني ومع العالم العربي كله، لو تعاملوا معنا على قدم المساواة وبدون سياسات وممارسات الاضطهاد القومي والحكم العسكري وهدم قرانا ومصادرة أراضينا. لقد أضاعوا فرصة تاريخية كان من الممكن فيها توطيد علاقات المساواة بين المجتمعين اليهودي والعربي في داخل إسرائيل. وكان من الممكن أن تكون العلاقات الإيجابية ما بين مجتمعينا، العلاقات العامة والشخصية، قاعدة متينة للسلام المنشود. ومع ذلك فأعتقد أن هذه الفرصة، التي تأخّرت الاستفادة منها، لا تزال قائمة ولا يزال قائمًا هذا الدور الأساس في مسيرة السلام والمصالحة للعلاقات المتساوية ما بيننا. إننا لا نستجدي أحدًا، حاشا وكلاّ، ولكنّنا نريد أن نقف على أرض الواقع لنطوِّره بالشكل الإنساني

والحضاري الذي لا مهرب منه. ولا بأس من تقديم علاقتنا الشخصية والعامة، نحن المبدعين من كلا الشعبين، مثلاً لما نحلم به وما هو حيوي من علاقات بين مجتمعينا.

مرّة أُخرى أرغب في أن أهتف هتافي في روايتي «إخطية» أنْ: «لم نعد ممثلين وأنتم المشاهدين! القاعة واحدة والناس ناس، أيها الناس»!

(حيفا في ١٩/٢/١٩٩٦)

(*) هذا الفصل كتبه المؤلف، لأوّل مرة في حياته، باللغة العبرية تلبية لطلب المجلة الشهرية «پوليتيكا»، ونشرته في عددها الخاص – عن «العرب في إسرائيل بأقلامهم» – أواسط ١٩٨٨. والنص العربي، أعلاه، هو التّرجمة العربية التي قام بها المؤلّف نفسه مجيزًا لنفسه بعض الإضافات.

(١) أي جرى إحصاؤها في سجلّ السكان ونالت هوية إسرائيلية فلا يمكن اعتبارها متسلّلة.

(٢) درج اليازجي الذي يصعد من شارع عباس إلى الكرمل في محاذاة سور دير الراهبات.

اميل حبيبي

جدل الخصوصيّة والإبداع

يستحضر اسم إميل حبيبي على الفور الأديب الأبرز من بين الآباء المؤسّسين للرواية الفلسطينية المعاصرة، لا بمعنى الأسبقيّة الزمنيّة بل بالمعنى الأعمق للتأسيس، الذي يُحيل إلى فنّية الرواية ذاتها، شكليًا وروحيًا. وذلك فضلاً عن كونه يمثّل تيارًا أساسيًا في الرواية العربية المعاصرة، لحمته وسداه تطعيم الشكل الروائي الحديث بعناصر سرديّة وغير سرديّة مجتلبة من التراث العربي والحكايات الشعبية وأشكال السّرد الشفوي.

منذ عمله الإبداعي الأول «سداسيّة الأيام الستة»، الذي ظهر بعد عدوان حزيران / يونيو ١٩٦٧، وحتى «خُرّافية سرايا بنت الغول»، التي ظهرت في ١٩٩١، وما بينهما من أعمال، استطاع إميل حبيبي أن يشيد بناءَه الروائي على موادّ متنوّعة متغايرة وأن يؤالف نصّه في دوائر متقاطعة وأن يجعل الكتابة الأدبية الساخرة تُحلّق في مناطق لم تكن مطروقة.

المتابع لأعمال إميل حبيبي على مدار أعوام إبداعه كافّة، سيجد أن هذا الكاتب الفلسطيني الكبير لم يتخلّ عن أُسلوبه الذي ربّما بلغ ذروته في «المتشائل»، ومن خلاله شقّ طريقًا جديدة الجِدّة كلّها للرواية العربية، لا تزال تغري العديد من النُّقاد والدّارسين بالمزيد من البحث والتقصّي في أدبه المتكامل وأُسلوبه المخصوص.

رحل إميل حبيبي في الأول من أيار عام ١٩٩٦ عن ٧٥ عامًا (مواليد ٢٩ آب ١٩٢١). وخلال حياته العريضة ملأ الكثير من المواقع بجدارة لافتة. وفي جميعها ترك علامات فارقة على مسيرته، التي قد يوجز أحد جوانبها الأكثر إثارة العنوان الزخم: جدل الخصوصية والإبداع.

فقد كان أديبًا ومسرحيًا وكاتب مقالة وقائدًا سياسيًا وابنًا بارًّا لشعبه العربي الفلسطيني. كما كان العاشق الأكبر لمدينة حيفا – مسقط رأسه.

إبداعات إميل حبيبي في مختلف المضامير السالفة، التي يمكن من خلالها الاغتراف من مذاق الكينونة الفلسطينية عمومًا وفي الدّاخل خصوصًا، حافلة ضمن أشياء أُخرى بتوصيفات للمكان الذي عاش

تبدُّلاته في منعطفات المصير الإنساني. ومن الطبيعي أن تكون متّصلة اتصالاً وثيقًا بمدينة حيفا، حيث اختار أن يرقد فيها رقدته الأبديّة داعيًا، في وصيّته الغنيّة بالدلالات، إلى نقش عبارة «باقٍ في حيفا» على شاهد قبره عند سفوح الكرمل وعلى مقربة من زرقة البحر.

حاز إميل حبيبي على جوائز عديدة عربية وعالمية، لعلّ أبرزها «وسام القدس» (١٩٩٠)، أرفع جائزة فلسطينية. وشارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العربية. واختير في ١٩٩١ بوصفه الكاتب الأهم في العالم العربي من قبل مجلة «المجلة» اللندنية. وكان عضوًا في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) عن الحزب الشيوعي في السنوات ١٩٥٣- ١٩٧٢، وتولّى رئاسة تحرير صحيفة «الاتحاد» في السنوات ١٩٤٤- ١٩٨٩، حيث عمل على إنجاز تحويلها إلى جريدة يوميّة. وقبل وفاته أسّس «مشارف»، المجلة الثقافية العربية الصادرة في حيفا، سوية مع إنشاء «دار عربسك للنشر».

أهم كتبه الأدبيّة المنشورة: «سداسية الأيام الستة» (١٩٦٩)، «المتشائل» (١٩٧٤)، «لكع بن لكع» (١٩٨٠)، «إخطيّة» (١٩٨٥)، «سرايا بنت الغول» (١٩٩١)، و«أُم الروبابيكيا» (١٩٩٢)، و«سراج الغولة» النص الوصيّة المنشور بعد وفاته.

تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات بينها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، بالإضافة إلى اللغة العبرية.

رغم الكثير الذي كتب عن تجربته الأدبيّة، ما زالت هذه التّجربة تستقطب القرّاء والنُّقاد والباحثين العرب ومن العالم أجمع، بالتطويرات والتجديدات التي أدخلتها على الرواية العربية، وبالتوازيات التي أقامتها بين شخصيّاتها وشخصيّات روائية أُخرى في الرواية العالمية، وبما أضافته على أشكال السَّرد العربية التراثية بعد الاستفادة منها، وفوق ذلك كلّه بما أحدثته من أثر متميِّز وبصمة خاصة على الكتابة الأدبية العربية، شكلاً ومحتوىً.

إصدار آثاره الكاملة بعد عشر سنوات على رحيله يتيح لكل راغب إمكانية الإطلالة من جديد على العالم المدهش والممتع الذي بناه إميل حبيبي وظلّ يشكّل منارة تنير الدَّرب أمام الأجيال العربية وأمام الإنسانية جمعاء، بعد وفاته، كما كانت الحال في حياته.

(النّاشر)

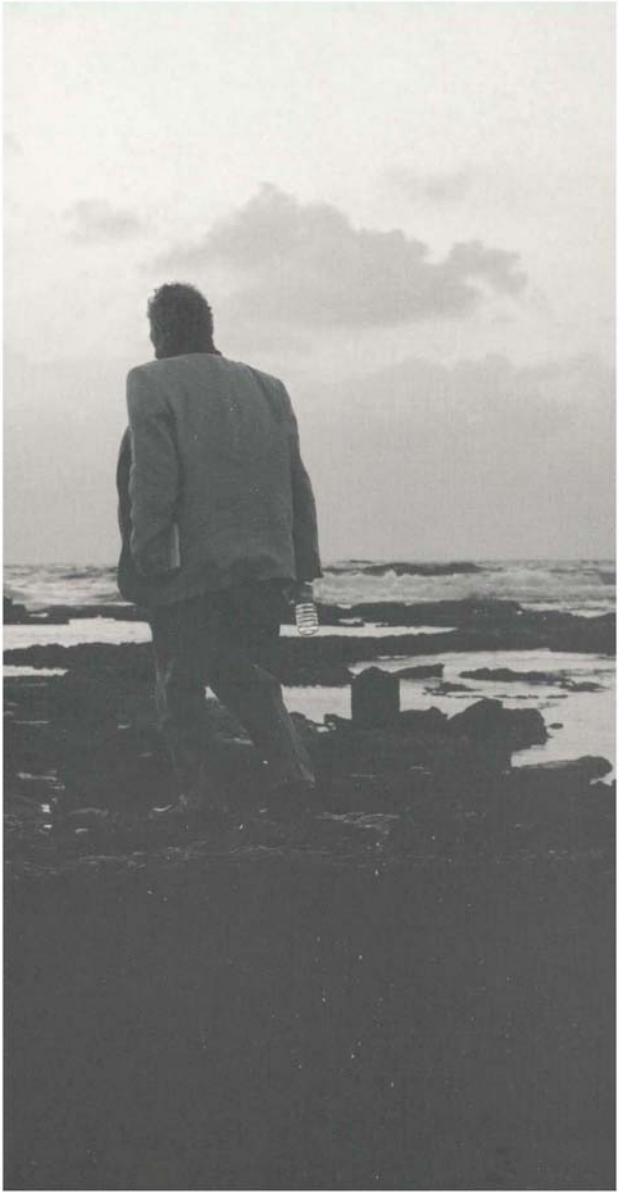

ISBN 965-7388-06-6